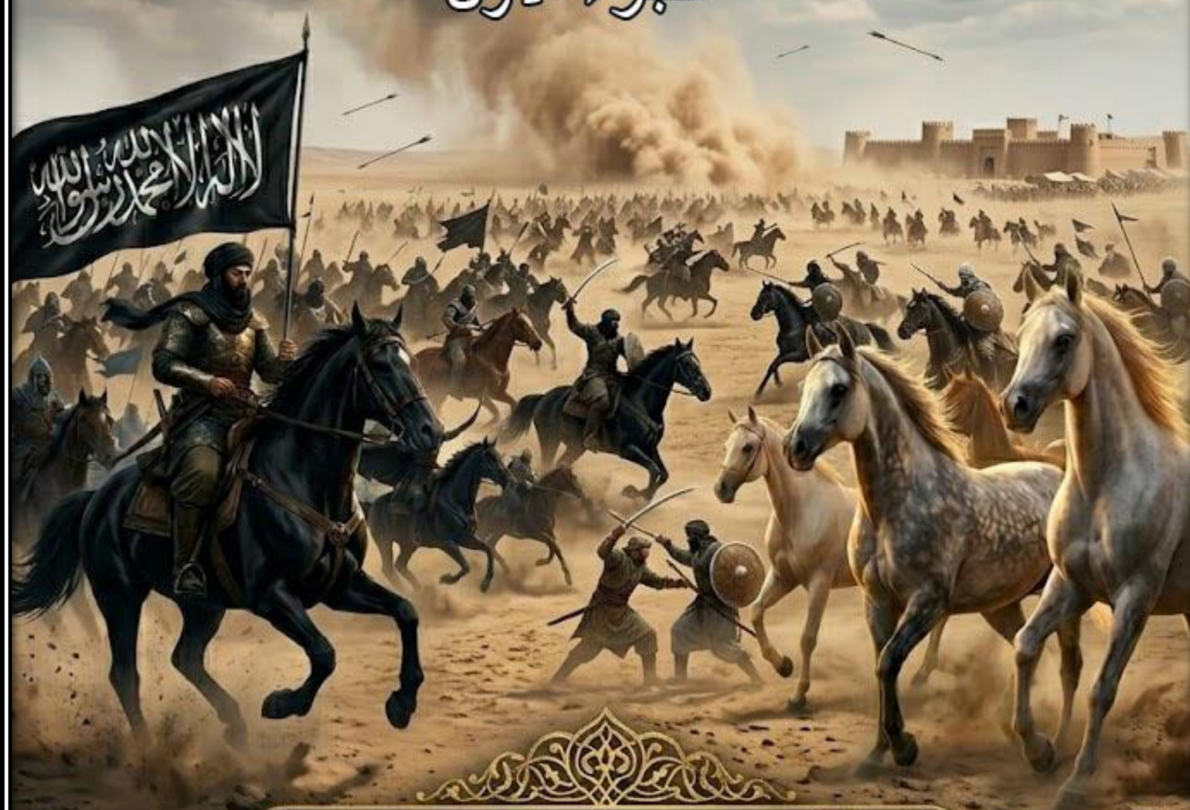
خيول العز

د. محمود الأكوح

الجزء الأول



إصدار موسوعة أعرف دينك للعلوم الشرعية

ذ

بسم الله الرحمن الرحيم

خيول العز

د.محمود الاكوح





إلى سيد الأنبياء ، وعظيم العظماء

ورسول رب الأرض والسماء

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

فرد من أمتك

محمود الأكوح



مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بنعمته أتم الصالحات، الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه فلا يحيط به مكان ولا يحويه زمان فأحسن كل شيء خلقه أوضح حكمته، وتمم مشيئته، ودل على أولوهيته، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

الحمد لله الذي نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حجباً، وحجب الأبصار والعقول أن تجد إلى تكيفه منهجاً، وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم ينبع بها عوجاً، وجعل لمن لازمه واتقاه من كل ضائقة مخرجا، وأعقب من ضيق الشدائد وضنك الأوابد لمن توكل عليه فرجاً، وجعل قلوب أوليائه متنقله في منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإنابه والتفويض والمحبة والخوف والرجاء.

فسبحان من أماضى على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمّن الكتاب الذي كتبه(أن رحمته تغلب غضبه)، سخر لعباده البر والبحر والشمس والقمر والليل والنهار والعيون والأنهار والضياء والظلام، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه يدعوهم إلى جواره في دار السلام.

ورفع لمن اكتفى بكتابه فأحلّ حلاله وحرّم حرامه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه في مراجى السعادة درجاً.

فإنه الذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأ العظيم وحبل الله المتين المديد بينه وبين خلقه وعهده الذي من إستمسك به فاز ونجا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا سمى له ولا كفوله ولا صاحبة له ولا ولد له ولا نسب له ولا يحصى أحدثنا عليه أثنى هو على نفسه.

وأشهد أن محمد عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمنيه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده أرسله الله رحمة للعالمين وقدوة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين، فخر العرب وعزها، وعظيم البشرية كلها، وطبيب القلوب بأدوائها، وفرح الأرواح بنعيمها.

أرسله الله على حين فترة من الرُسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السُبل وإفترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيزه وتوفيره، فشرح له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة.

وكثر به بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة فتح برسالته أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

واستفتح بالذي هو خير (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة : ٤)

قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)**(آل عمران: ١٠٢)**

قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) **(سورة النساء : ١)**

قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) **(سورة الأحزاب: ٦٩-٧١)**

قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) **(سورة الحج الآية: ١)**

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً على الناس أجمعين، وجعل سلوكه أعظم سلوك وتصرفاته أهدى تصرف، فكانتا بذلك قدوة ومثلاً تقتدي به البشرية.

وقد كان هذا الهدى واضحاً لدى الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا يترسمونه ويسيرون على هداه، ويتبعونه في كل صغيرة وكبيرة ويعتزون به.

فيجب على كل مسلم ومسلمة الإقتداء والتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فالاقتداء أساس الاهتداء.

قال تعالى:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (سورة السجدة: ٢٠)

يقول الإمام ابن كثير هذه الآية: أصل كبير في التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الناس بالتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره، وإنتظاره الفرج من ربه سبحان الله تعالى.

كشف الغيوم بمولد النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم:

كان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثاً اهتز له الكون فرحاً بمقدم خاتم المرسلين وسيد الأولين، وخير خلق الله أجمعين الذي بعثه الله رحمة للعالمين، ومنقذ للبشرية يخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد واكب مولده المعجزات البيشارات التي تدل على أن الدنيا ولد فيها النبي المنتظر، الذي مثالة البناء ونجت نار الفرس بعد أن ظلت مشتعلة ألف عام، وجعلت عبرة ساوة، مما كان تقديراً لنهاية دولة الفرس وانكفأت الأصنام حول الكعبة

لقد كان ميلاد نبي الإسلام وسيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم بشيراً بفخر جديد يطل على الوجود ومشرفاً للخير والبركة على الإنسانية جمعاء، وكانت حياته منذ ولد إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين، حياة حافلة بالخوارق العجيبة التي تدل عليه، وتلفت الأنظار إليه.

فقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم قرآناً يمشي على الأرض، وهذا ما قررته السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام وما كان من مواقف إنسانية

تشهد بذلك، فقد كان أباً باراً بأبنائه، وزوجاً وفياً لزوجاته، ومعيناً لمن طلب منه العون والمساعدة، وعطوفاً على الأطفال ورحيماً بالحيوان، حتى أعدائه كان متسامحاً معهم، رغم ما قاساه منهم، ومواقف الخير والعظمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تحصى، فقد كان صلى الله عليه وسلم على مدى أربعين عاماً قبل البعثة، وثلاثة وعشرون بعدها مثالاً للكمال الإنساني والسلوك النبوي، والأخلاق الكريمة الحميدة.

وجوانب العظمة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تقتصر على توضيح مفاهيم الدين فقط، بل كانت ولا تزال منهجاً للإصلاح، وتحقيق العدل والسلام الاجتماعي، ولم يختلف اثنان على أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة منهج حياة وقدوة للأمة المسلمة، كما أنها كانت ومازالت مؤثرة في حياة البشرية كلها، وما أحوجنا اليوم إلى تدبر واسترجاع أصل كل خلق حميد والاستلهام من سيرة صاحب الخلق العظيم رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم تستلهم منها بعضاً من مظاهر شجاعته وكرمه وأدبه وعدله وحياته صلى الله عليه وسلم نتدبرها لعلها تغير شيئاً مما ران على قلوبنا [١] من حقد وبخل وشح، وعساها تمحو بعضاً من مساوي الأقوال والأفعال التي انتشرت بين بني الإسلام.

ولم يقتصر تأثير شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين فقط، بل غير المسلمين من فلاسفة الغرب والشرق وقفوا طويلاً أمام سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته الحافلة بالعبر والعظات والدروس التي استفادت منها البشرية جمعاً.

موقف الأعجاب والإكبار، وإذا كان يعطي المشرقين قد علت أصواتهم في بعض الأوقات بالنقد والتنكيل حقداً وحسداً، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد سخر نفر منهم للذود والدفاع عن نبيه صلى الله عليه وسلم وكان دفاع هؤلاء وشهاداتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم رد على إدعاءات بنى جنسهم من الحاقدين، وكما يقولون:

الحق ما شهد به الأعداء:

١- أي: ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب – أنظر المعجم الوسيط (٤٠٠/١ – مادة زين).

فمثلاً: دائرة المعارف البريطانية قالت: " كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً، ظهر النبي محمد في وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية، ولم يكن لهم ما يفاخرون به من الفنون أو العلوم، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي، وكانوا مفككين لا رابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة كل منها في قتال مع الآخرى وقد حاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة لإصلاحهم ولكن ظهر النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي ارسل هدى للعالمين، فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب وأن يغرس فيها كل ما هو طيب وكريم، وأن يرفعها من الوثنية الشركية إلى التوحيد الخالص، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الحق والفرقان، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد، وانتشروا في الأرض يعملون على إعلاء كلمة الله .

أما الباحث الأمريكي " مايكل هارت" الذي أف كتاب " العظماء مائة أعظمهم محمد" والذي أحدث ضجة في العالم كله ساعة صدوره. لقد وضع هذا المؤلف شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم على رأس هؤلاء العظماء، الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستويين: الديني والدنيوي.

فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره، كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائده سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد أربعة عشر قرناً من وفاته فإن أثر محمد عليه الصلاة والسلام لا يزال قوياً متجدداً.

أما المؤرخ العالمي والروائي الشهير" برنارد شو" فيقول: إن أوربا بدأت تحس الآن بحكمة محمد وعظمة دينه، وتبرئ العقيد الإسلامية مما اتهمت به من أراجف رجال أوربا في العصور الوسطى، وسيكون دين محمد هو النظام الذي تؤسس عليه دعائم السلام والسعادة؛ لأن مبادئه تستهدف حل المعضلات وإزالة المشكلات، وإن كثير من الأوربيين يقدمون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوربي قريبة لا محالة، إنني

أعتقد لو أن رجلاً كمحمد تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة.

ومن هؤلاء أيضاً الفيلسوف الروسي " تولستوى" الذي عبر عن إنبهاره بشخصية رسولنا عليه الصلاة والسلام – بقوله: إن محمد هو مؤسس ورسول، ولقد تحمل في شقى دعوته الأولى كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات الوثنية القديمة وغيرها شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى حق، ورغم هذه هذه الاضطهادات لم يقل أنه نبي الله الوحيد، بل اعتقد أيضاً بنوة موسى والمسيح، ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد .. ومما لا ريب فيه أن محمد صلى الله عليه وسلم كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني بخدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ومثل هذا الرجل الجدير بالاحترام والإجلال.

ومن كتاب المسحيين الذين انصفوا في كتابهم مستر بورت سميث " والذي قال:(إن محمداً كان موفقاً في ثلاث هي: زعامة الشعب، وزعامة الدين وزعامة السلطان وعلى الرغم من أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم" أميل دير منجام" فيصف اسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في إرساء وطيد شئون دولته فيقول:(إن محمد رسول الإسلام أبدى طوال حياته اعتدالاً لافتاً للنظر، فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قلّ أن يوجد لها مثيل في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء وحذرهم أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجارة، أو يقطعوا الاشجار المثمرة، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة.

ومن الفلاسفة الغربيين نجد أيضاً " توماس كارليل" الذي قال في كتابه " الرسالة المحمدية"

(لقد اصبح أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يدعيه المعرضون من أن محمداً خداع مزور، وعلينا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير منذ اثنى عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله وخلقنا... أفكان أحد يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء اكذوبة وضيعة ؟! أما أنا فلا أستطيع أن أراى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والفحش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم هذا التصديق والقبول فما الناس إلا حمقى ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وضلال كان الأولى بها ألا تخلق).

ويتساءل " كارليل" هل رأيتم قط معشر الناس أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟! ويجيب على تساؤله قائلاً: " عجب والله.. أن لرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، وعلى ذلك فلسنا نعتبر محمد قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتطوع بالحيل والوسائل إلى بغيته أو يطمع إلى درجة ملك، وما الرسالة التي أداها إلا كانت حقاً صريحاً، وما كلمته إلا صوتاً صادقاً من عالم الغيب الذي يجهله الناس، كلا ما محمد صلى الله عليه وسلم بالكاذب ولا بالمنافق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر منها قلب الطبيعة فإذا هو شهاب قد أضاء العالم أجمع، وذلك أمر الله.

وكتابات فلاسفة ومفكرى الغرب كثيرة ولا يمكن إغفالها، فالدكتور" شبلي شميل" يقول أن محمداً نبي الإسلام أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ولا يتصور مثله في الاثنين" أما حدستاف لوبون" قال:" أن محمداً رغم ما يشاع عنه من قبل خصومه ومخالفيه في أوربا قد ظهر بمظهر الحلم الوافر والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمة جميعاً، أما " سيرفلكد" فقد قال:

(كان النبي محمد في معاملاته الخاصة على جانب كبير من إيثار العدل، فقد كان يعامل الصديق وغيره، والقريب والبعيد، والغني وفقير، والقوي والضعيف، بالعدل والمساواة والانصاف).

هذا هو نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل، الذي جعله الله قدوة للبشرية، التي تريد السعي في الحياة الدنيا بالمنهج عبوراً للآخرة، بالاسلوب الإيماني الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، يلتمسون الخير فيتبعونه ومداخل الشر فيجتنبونه.

الإشراق .. بعد الاستشراق

الانبهار الفكري بالغرب

كثيرون هم الذين حللوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاباتهم على أنها عظمة إنسانية مجردة كالتي اتصف بها كثير من القادة والرجال الذين جاءوا من قبله وجاءوا من بعده.

وكثيرون هم الذين أوهموا الناس أن حاولوا أن يوهموهم أن الدوافع الحقيقية التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الهجرة من مكه إلى المدينة، إنما تتمثل في الرغبة الطامحة إلى نقل الزعامة والسيادة من ايدي الأعاجم، إلى أيدي العرب " وجدت لهذه الأغراض أفلام، ونشرت إبتغاء تحقيق ذلك أعطيات وأموال.

غير أن التجربة أثبتت أن كلاً من الأسلوب أو المنهج أو حتى التصورات المصنعة، لا يقوى على تحويل الحق إلى باطل أو الباطل إلى حق.

فلقد انقشعت سحابة هذه الكتابات كلها على الرغم من كتابتها وعادت شمس الحقيقة ساطعة من ورائها كما هي، وبقى الناس عامة والمثقفين خاصة على يقين بأن عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمة من ثمار نبوته قبل أن تكون من نسيج إنسانيته، وبأن الفتح الذي تم على يديه كان قياماً بأمر الله ولم يكن لحاقاً وراء مال أو سلطة أو منصب.

توهمت بعض العقول العربية المسلمة أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا نهضة مثل هذه النهضة العلمية في أوربا إلا أن يفهموا الإسلام هنا كما فهمت أوربا النصرانية هناك، وأن يضعوا حقائق الإسلام الغيبية من وراء إكتشافات العلوم المادية، فلا يؤمنوا (بغيب) لم يدركه

(علم)، ولا يُعرجوا على معجزة لم يؤيدها إكتشافاً أو اختراع، فإذا فعلوا ذلك في اعتقادهم – نهضوا نهضة أوربا في علومها ولحقوها في رقيها وفنونها.

وأنشأوا ما اسموه (الإصلاح الديني) والدين الصحيح ما كان يوماً ليفسد حتى يحتاج إلى مُصلح أو إصلاح.

الإصلاح الديني:

وكان من مظاهر هذا الإصلاح ظهور أو (تجربة تحاول تحليل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم) تحليلاً يسير في خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية وتحت لواء ما زعموه (العلم الحديث)، فلقد كان كتاب (حياة محمد) لحين هيكل (التجربة الرائدة في هذا الأمر) أعلق فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياء محمد صلى الله عليه وسلم إلا كما أمر به (العلم)، ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام إنما هو القرآن، والقرآن فقط.

وتذكر الكاتب أن يستشهد في هذا بقول الشاعر:

لم يمتحنا بما تعي العقول به * * * حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

ونسى أن يقف عند قوله في القصيدة ذاتها:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة * * * تمشي إليه على ساق بلا قدم

وقام (الشيخ المراغنى) شيخ الأزهر إذ ذاك، يقرظ الكتاب ويبارك الخطوة الرائدة، وإنطلق محمد فريد وجدى هو الآخر ينشر سلسلة مقالات داعياً فيها إلى فهم الإسلام والسيرة النبوية عن طريق العلم، ولو اقتضى ذلك الاعراض عن المنبر الصادق للغيبيات والخوارق والمعجزات وإن جاء بها الخبر الصادق المتواتر، كأن العلم إنما يتحقق بإنكار كل ما لم يقع تحت حسك وشعورك.

الاحتلال البريطاني والفهم الجديد للإسلام:

ومعلوم كيف استغل الاحتلال البريطاني مصر إنذاك، هذا الفهم الجديد للإسلام عند طائفة من أقطاب الفكر وحملة القلم، إستغله في إضعاف الدين في أفئدة المسلمين (وأي وازع ديني يبقى في نفس من أنكر فكرة المعجزة من اساسها في الدين، وهل الدين شيء غير معجزة الوحى الإلهى وإلى رسله وأنبيائه).

ثم مرت الأزمة وتوالت السنوات، فتبين لكل باحث منصف أن تلك المدرسة لم تكن على شيء من التأمل الفكري الحر والآمن والبحث العلمي النزيه، وإن كانت رد فعل أثاره الانبهار والشعور والضعف لدى طائفة من المسلمين، تهيأ لها بسبب ظروف خاصة أحاطت بها، أن تطلع على الحياة الأوربية فتستهويها زخرفتها وملذاتها، فإتخذوا من نزوات نفوسهم حاكماً مسلطاً على عقولهم وإصطنعوا بذلك مدرسة فكرية ظاهرها (الإصلاح الديني) وباطنها الاستحذاء النفسي والانبهار الفكري بين يدي نهضة الغرب.

وتبين لكل باحث أيضاً أن تلك المدرسة لم يكسب أربابها ورعاتها أي نهضة علمية كالتي نهضتها أوربا كما كانوا يوهمون أو يتوهمون، كل ما جنته أيدي ذلك (الإصلاح الديني) فقدان الحقيقتين معاً، فلاهم على حقيقته الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا.

إن المسلم لا ينبغي أن يحاول لحظة واحدة فهم حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن عبقري عظيم أو قائد خطير أو سياسي محنك فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو مخالفة للحقائق الكبرى التي تزخر بها حياة محمد عليه الصلاة والسلام، فلقد أثبتت هذه الحقائق الجلية الناصعة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متصفاً بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى في حياته عليه الصلاة والسلام، ألا وهي أنه نبي مرسل من قبل الله عز وجل.

وإن من العبث الغريب أن نضع الفروع موضع الأصل ثم نتجاهل وجود الأصل مطلقاً ولاريب أن الرد على ذلك لا يكون إلا بلفت النظر إلى الأصل بل إلى الأصل وحده.

كما أن المسلم لا ينبغي أن يتصور أن المعجزة الوحيدة في حياته صلى الله عليه وسلم إنما هي القرآن الكريم، ما دام لا ينكر أن له عليه الصلاة والسلام سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها، أما أن كان ينكر وجود السيرة فإن عليه أي ينظر معجزة القرآن الكريم أيضاً، إذ لم تبلغنا معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم المختلفة إلا من حيث بلغنا منه معجزة القرآن الكريم.

وكل ما انفقه دعاة السوء ومحترفوا الغزو الفكرى من مستشرقين ومستغربين وأذناب وجهال من وقت طويل وجهد عظيم وكتابات مستفيضة متلاحقة، لا يمكن أن يتسبب في تحويل الحق إلى الباطل أو من الباطل إلى الحق وفي هذا دليل على أن الحقيقة الفكرية لا يمكن أن تغتال إلا إذا أمكن مخادعتها أو التأسيس عليها، فلن يكون ذلك إلى الأمد أكبر .. ثم للجسر الخداع وأن يزول التلبيسين وتشرق الحقيقة مرة أخرى من جديد.

ويستفيد المتأملون والباحثون من ذلك عبرة تمد أفكارهم بمزيد من الحذر والوعي.

ومهما يكن صحيحاً ما يقوله الناس من ابتقاء المسلمين عنه الإسلام العظيم في هذه السنوات الأخيرة، فإن الذي أعتقده أن الناشئة المسلمة اليوم تملك من الوعي الإسلامي ودقة التأمل والملاحظة ما لم يكن عليه المسلمون في أي عهد قريب مضى.

معلم البشرية (صلى الله عليه وسلم):

إن دراسة أحداث غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم له تنفيذاً لأمر الله بالتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو المنهج والسراج المنير الذي يضيء لنا الطريق في الحياة والوصول إلى الله.

فغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وضعت الدستور والمبادئ والأخلاق التي لم تستطع المدنية حتى الآن أن تضاهيها.

لابد بإلقاء الضوء على سرايا وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من زاوية التاريخ أو زاوية الأعمال العسكرية ولكن من الزاوية الإنسانية والنواحي الأخلاقية.

قاعدة الإسلام الأساسية (السلام):

إن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام، و(الحرب) هي الاستثناء فلا سبب للحرب في الإسلام إلا في حالات معينة.

وإذا كان الإسلام قد اتاح الحرب ولكنه أحاطها بآداب وأخلاقيات، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً لحفظ الدماء البشرية.

وحروب النبي صلى الله عليه وسلم كلها حروب " دفاع " ولم تكن منها حروب " هجوم " إلا على سبيل " المبادرة بالدفاع " بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال.

حب الوطن .. من الإيمان:

خرج المسلمون من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا وطأة الأذى وإخفاق الدعوة وعدم قدرتها على التنفس ما خرجوا من بلد هي أحب البلاد إلى أنفسهم وأعزها إلى قلوبهم.

وخير دليل على ذلك هذه العواطف الجياشة والكلمات الموجعة التي ودع بها الرسول صلى الله عليه وسلم مكة فقال:(والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت).

فقد هاجر المسلمون إلى المدينة، وتركوا مكة التي هي أحب البلاد إليهم فيها الكعبة بيت الله الحرام.

الفصل الأول

الأحداث التاريخية التى سبقت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما كان المسلمون يعيشون في مكة كانو يتعرضون للتشكيل والتعذيب والاضطهاد بسبب إيمانهم بالله عز وجل.

واستمر هذا التعذيب والاضطهاد للمسلمين لمدة ١٣ عام من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وتعرض المسلمون إلى شتى أنواع التعذيب والإيذاء والظلم والبطش.

وعلى الجانب الاقتصادى: كان الظلم عن طريق أخذ الأموال دون وجه حق.

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

أذن النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالهجرة إلى الحبشة في خلال العامين الخامس والسابع من البعثة حيث كان يحكم الحبشة ملك عادل وهو (النجاشى) وعاش المسلمون في بلاده في أمان.

وبعد تلك الفترة التى إشتد فيها إيذاء المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم

الهجرة إلى يثرب وموقف قريش منها:

هاجر المسلمون إلى المدينة وبالطبع لم تعجب قريش هذه الهجرة، وأبت قريش أن تترك المسلمين، فأخذت تطاردهم حتى قتلت من قتلت ونزعت البعض أموالهم وممتلكاتهم، وعملت على تضييق الخناق عليهم بشكل عام.

ولذلك خرج المسلمون من مكة ليلاً وفى تخفى خشية من قريش ألا تراهم ويسلموا من أزاها.

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم:

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب في العام الثالث عشر من البعثة أيضاً.

وعندما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب أحسن أهلها إستقباله.

أسس بناء الدولة الإسلامية:

وهنا أول ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم هو بناء الدولة الإسلامية الجديدة الناشئة ولكن على أسس راسخة وعقيدة ثابتة.

الأساس الأول: بناء المسجد

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد الذى كان بمثابة جامعة يلتقى فيها المسلمون ويتلقى فيها المسلمون علوم دينهم وتعاليم الشرع الحنيف وحلقة لتآلف القبائل الإسلامية التى كانت متناحرة ومتضاربة قبل الإسلام وكانت فيها الحروب والنزاعات.

الأساس الثاني: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين من مكة والذين تركوا ديارهم وأموالهم وممتلكاتهم وهاجروا إلى يثرب إيثاراً لمرضاة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار الذين هم أهل يثرب ممن تعهدوا بنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته ومن هاجر معه.

الأساس الثالث: دستور المدينة أو صحيفة المدينة:

بعد أن ارسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد المجتمع الجديد والأمة الواحدة بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقات الدولة الجديدة الإسلامية مع الآخرين من غير المسلمين.

وما قصده صلى الله عليه وسلم بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم يتفق في وفاق واحد، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد من قبل في ذلك العالم الملئ بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم (اليهود) وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، بيدأنهم لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير.

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم:

تعريف الغزوة:

الغزو: السير إلى قتال العدو والغزوة المرة من الغزو والجمع غزوات كشهوات وغزو العدو إنما يكون في بلاده.

السرية:

القطعة من الجيش من خمس أنفس إلى ثلاثمائة واربعمائة، توجه مقدم الجيش إلى العدو، والجمع سرايا.

أما الغزوة في الإصطلاح الإسلامي فتعني أن يخرج المسلمون لقتال الكفار بقيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أما السرية في الإسلام فهي خروج المسلمين لقتال أعداء الإسلام وبقاء النبي في المدينة. على أن تكون هذه الثلة من المسلمين بقيادة أحد الصحابة يختارهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

السبب من الغزوات موضح في الآية التالية:

قال تعالى:(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) سورة الحج: ٣٩-٤١

إحصائيات وارقام:

تراوح عدد الغزوات التي قادها الرسول محمد بين التسع عشرة غزوة والثلاثين غزوة، ولعل الاختلاف في إحصاء عدد الغزوات يعود إلى ذهاب بعض المؤرخين والعلماء إلى اعتبار جميع الوقائع التي سبقت الغزوات الكبرى وقائع وغزوات منفردة، حتى إن كانت قريبة من بعضها البعض الآخر إلى جمع الغزوات المتقاربة في الفترة الزمنية بإعتبارها غزوة واحدة مثل غزوة خبير وغزوة وادي القري.

كان من ضمنها ٩ غزوات دار فيها قتال والباقي حقق أهداف دون قتال

من ضمن هذه الغزوات خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ٧ غزوات علم مسبقاً أن العدو فيها قد دبر عدواناً على المسلمين.

استمرت الغزوات ٨ سنوات من ٢ هـ إلى ٩ هـ. في السنة الثانية للهجرة حدث أكبر عدد من الغزوات حيث بلغت ٨ غزوات مجموع غزوات النبي وسراياه تقارب المئة أو تفوقها.

الإذن بالقتال:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزال الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم، قال تعالى:(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (سورة الحج:٣٩).

وأنزل معه آيات بين لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى:(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (سورة الحج: ٤١).

وكان الإذن مقتصراً على رجال قريش، ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشاً إلى غيرهم.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجارتهم، واختاروا لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن مابين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد صلى الله عليه وسلم معاهدة مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة، كما عقد معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية، وسيأتي ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

الغزوات والسرايا قبل بدر[١]:

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

١. الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

٢. عقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق.

٣. إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

٤. إنذار قريش عقبى طيشها، حتى تفيق من غيها الذي لا يزال يتوغل في أعماقها، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها واسباب معايشها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة.

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز:

---

١ - سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غوة، حارب فيها أم لم يحار ب، وما خرج فيه أحد قادته سرية.

١. سرايا سيف البحر:

في رمضان سنة ١ هـ، الموافق مارس سنة ٦٢٣م، أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هاشم في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[١]، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفاً للفريقين جميعاً بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبيض، وحمله أبو مرثد كناز بن حصين الغنوى.

٢. سرية رابغ:

في شوال سنة ١ من الهجرة، الموافق أبريل سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله صلى الله عليه وسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان– وهو في مائتين – على بطن رابغ، وقد ترامي الفريقين بالنبل، ولم يقع قتال.

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازنى، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبيدة أبيض، وحامله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف.

٣. سرية الخرار[٢]:

في ذى القعدة سنة ١ هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً يعترضون عيراً لقريش، وعهد إليه ألا يجاوز

١ - العيص – بالكسر: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.
٢ - الخرار- بالفتح فالتشديد: موضع بالقرب من الجحفة.

الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبحية خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض، وحمله المقداد بن عمرو.

٤. غزوة الأبواء أو ودان[١]:

في صفر سنة ٢هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، حتى بلغ ودان فلم يلق كيداً، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رضى الله عنه.

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى، وكان سيد بنى ضمرة في زمانه، وهذا نص المعاهدة:

(هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة، وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه)[٢].

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب.

٥. غزوة بُواط:

في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، الموافق سبتمبر ٦٢٣ م، خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطا من ناحية رضوى[٣] ولم يلق كيداً.

---

١ - ودان – بالفتح فالتشدد: موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابغ مما يلى المدينة ٢٩ ميلاً، والأبواء: موضع بالقرب من ودان.
٢- أنظر: المواهب الادنية ٧٥/١ وشرحه للزرقاني ، وما بل بحر صوفه: أي ما دام في البحر ما يبل الصوفة.
٣ - بواط ورضوى: جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة مما يلي طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو ٤٨ ميلاً.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

٦. غزوة سفوان (تسمى بغزوة بدر الأولى):

في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، الموافق سبتمبر ٦٢٣م، أغار كرز بن جابر الفهرى في قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة، ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى (بغزوة بدر الأولى).

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، واللواء كان أبيض، وحامله على بن أبي طالب رضى الله عنه.

٧. غزوة ذى العشيرة:

في جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢هـ، الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣م، خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسين ومائة ويقال: في مائتين، من المهاجرين، ولم يكره أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشيرة [١] فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العيرة التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم في أواخر جمادى الأولى، ورجوعه في أوائل جمادى الأخرة، على ما قال ابن إسحاق، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهرة هذه الغزوة.

---

١ - العشيرة – مصغراً، ويقال: العشيرة بالمد، وقيل: العسيرة، بالمهملة: موضع بناحية ينبع.

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة عدم إعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة.

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه.

٨. سرية نخلة:

في رجب سنة ٢هـ، الموافق يناير سنة ٦٢٣م، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها عبد الله بن جحش الأسدى إلى نخلة في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان على بعير.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلك كتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه:(إذا نظرت في كتابي هذا فأمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من اخبارهم)، فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه.

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباًوأدماً وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمى، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم ابن كيسان مولى بنى المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام.

وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه، وقال:(ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام) وتوقف عن التصرف في العير والأسيرين.

ووجد المشركين فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلو ما حرم الله، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحى حاسماً هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون.

الوحي يتحدث عن إستباحة المقدسات:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) (سورة البقرة: ٢١٧).

فقد صرح هذا الوحى بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة وفحش.

وبعد ذلك أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه[1].

البداية إنما كانت من المشركين:

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر في واحد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرزبن جابر الفهرى، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

[1]- أخذنا تفاصيل هذه السرايا الغزوات من زاد المعاد ٢/٨٣-٨٥ ، وابن هشام ١/٥٩١ ــ ٦٠٥ ، وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا، وفي تعيين عدد الخارجين فيها. واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم.

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركين بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا من غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة – كما فعلت جهينة وبنو ضمرة – ازدادوا حقداً وغيظاً، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل، من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعدج سرية عبد الله بن جحش في شهر شعبان سنة ٢هـ، وأنزل في ذلك آيات بينات:(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)) (سورة البقرة).

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلمهم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه:(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)) (سورة محمد).

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال:(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) (سورة محمد: ٢٠).

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له و عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب الكريم المتعال، فالظروف كانت تقتضى عراكاً دامياً بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلمتهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

لا بد من الغلبة للمسلمين .. في النهاية:

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحوها على قرب العِراك الدامى، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائياً، أنظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى، والإثخان في الأرض حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً. ولكن ترك كل ذلك مستوراً حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله.

تحويل القبلة:

وفي هذه الأيام – في شعبان سنة ٢ هـ/ فبراير ٦٢٤م – أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلو في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة، انكشفوا عن المسلمين ورجعوا على ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

ولعل في تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلاً فلا بد من تخليصها يوماً ما إن كانوا على حق.

وبهذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتد شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، ولقاء العدو في معركة فاصلة تدور لإعلاء كلمة الله.

الفصل الثاني

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

سبق في ذكر غزوة العشيرة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي صلى الله عليه وسلم في ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد) إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر.

وكانت العير تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها: ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرص إلا نحو أربعين رجلاً.

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تتألم لها قلوبهم على مر العصور، لذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين قائلاً: " هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ".

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب سيصطدم بجيش مكة – بدل العير – هذا الاصطدام العنيف في بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السريا والغزوات الماضية، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة.

قوة الجيش الإسلامي:

واستعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣ أو ٣١٤ أو ٣١٧ رجلاً) ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج. ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالاً بليغاً، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس[1] أوفرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى مرثد بن أبي الغنوى يعتقبون بعيراً واحداً.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة ابن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدرى، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتيبتين:

١. كتيبة المهاجرين: وأعطى رايتها علي بن أبي طالب، ويقال لها: العُقاب.

٢. وكتيبة الأنصار: وأعطى رايتها سعد بن معاذ (وكانت الرايتان سوداوين)

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو – وكانا هما الفارسين الوحدين في الجيش – كما سبق – وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده صلى الله عليه وسلم كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر:

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الجيش " غير المتأهب " فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء، فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدراً، فسلك في ناحية

١- وهذه رواه أبو يعلى في مسنده ٢٤٢/١ ح (٢٨٠) و ٢٦٠/١ ح (٣٠٥) وروى ذلك أيضاً الإمام أحمد في مسنده ١٢٥/١ ، ١٣٨.

منها حتى جزع وادياً[١] يقال له: رحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، ومن هنالك بعث بسبس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبي الزغباء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

ضمضم بن عمرو الغفارى يستصرخ قريش بالنفير:

وأما خبر العير فإن أبا سفيان – وهو المسئول عنها – كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخبارته بأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وخرج ضمضم سريعاً حتى أتى مكة، فصرخ على بطن الوادي واقفاً على بعيره، وقد جدع أنفه، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة [٢] ، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث ... الغوث.

أهل مكة يستعدون للخروج:

فتحفزوا الناس للخروج وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبوا [٣] في الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى فلم يخرج منهم أحد.

قوة الجيش المكي:

١- جزع الوادى : قطعة عرضاً.
٢- اللطيمة : الإبل تحمل الطيب
٣- جمعوا.

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائدها العام أبا جهل ابن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل.

إني جار لكم:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يثنيهم، ولكن حينئذ تبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى – سيد بنى كنانة – فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله تعالى:(بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (الانفال:٤٧) وأقبلوا – كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون رسوله (وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ) (القلم)، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لجرأة هؤلاء على قوافلهم.

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلكوا في طريقهم وادى عسفان، ثم قديداً، ثم الجحفة، وهنالك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فأرجعوا.

دهاء أبو سفيان:

وكان من قصة أبي سفيان أنه يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عيره حتى لقى مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا

التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعاً، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة.

الجيش المكي:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحروا الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً.

ولكن على رغم أبى جهل – أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة – وكان حليفاً لهم، ورئيساً عليهم في هذا النفير – فلم يشهد بدراً زهرى واحد، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتطبت بنو زهرة برأي الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً.

وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة – وهو يقصد بدراً فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر.

موقف الجيش الإسلامي المحرج:

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو لا يزال في الطريق بوادى ذفران– خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال لاجتناب اللقاء الدامى، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة، والجراءة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيماً

لمكانة قريش العسكرية، وامتداداً لسلطانها السياسي، وإضعافاً لكلمة المسلمين وتوهيناً لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لاروح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة.

ثم هل هناك ضمان للمسلمين بإمتناع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين في عقر دارهم؟ كلا! فلو حدث من جيش المدينة نكول ما، لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

المجلس الاستشاري الأعلى:

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه وقادته.

وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامى، وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)) (الانفال) وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، أمض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)) (المائدة)، ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرف رأي قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد

سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة:(أشيروا على أيها الناس) وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ.

فقال: والله، ولكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: " أجل "

قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فأمض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فأظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، وأقطع حبل من شئت، وخذ منا أموالنا ما شئت، وأعطينا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فهو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:(سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم).

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران، فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم انحط منها على بلد يقال له: الدبة، وترك الحنان بيمين – وهو كثيب عظيم كالجبل – ثم نزل قريباً من بدر.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجول حول معسكر مكة:

وهناك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي يكر الصديق رضى الله عنه، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه – سأل عن الجيشين زيادة في التكتم– ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إذا أخبرتنا أخبرناك)، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: " نعم "

قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المدينة. وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " نحن من ماء "، ثم أنصرف عنه، وبقى الشيخ يتفوه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

استخبارات المدينة تجمع معلومات هامة عن جيش العدو:

وفي مساء ذلك اليوم بعث صلى الله عليه وسلم استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدووقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر فجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهم القبض، وجاءوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبي سفيان لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة – فضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نحن لأبي سفيان فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال لهم كالعاتب:(إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله، إنهما لقريش).

ثم خاطب الغلامين قائلاً:(أخبرني عن قريش)، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى باالعدوة القصوى، فقال لهما " كم القوم؟ " قالا: كثير، قال:" ما عدتهم؟ " قالا: لا ندرى، قال: " كم ينحرون كل يوم ؟ " قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف" ثم قال لهما: " فمن فيهم من أشراف قريش ؟ " قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف في رجال سمياهم.

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال: " هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها "

نزول المطر:

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم، قال تعالى:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) (الانفال)

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

وتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُباب بن المنذر كخبير عسكري وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال: " بل هو الرأي والحرب والمكيدة "

قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض باالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم – قريش فننزله ونغور – أي نخرب – ما وراءه من القُلُب[١]، ثم نبنى عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد أشرت بالرأي ".

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب.

بناء عريشاً للنبي (عليه الصلاة والسلام) مقراً لقيادته:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني المسلمون مقراً لقيادته، استعداداً للطوارئ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر، حيث قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير، وبنى السلمون عريشاً على تل مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة.

كما تم اختيار فرقة من شباب الانصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم حول مقر قيادته.

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه[٢]، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: " هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله "[٣] ثم بات

١- القلب : الآبار

٢- انظر: جامع الترمزي : ابواب الجهاد ، باب ما جاء في الصف والتعبئة ٢٠١/١.

٣- رواه مسلم عن أنس ، أنظر : مشكاة المصابيح ٥٤٣/٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جذع شجرة هنالك، وبات المسلمون ليلهم هادئى الأنفاس منيرى الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم؛ يأملون أن يروا بشائر ربهم بعينهم صباحاً ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) ﴾ (الانفال)

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابعة عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر.

الجيش المكي في عُرصة االقتال، ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادى بدر، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " دعوهم " فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر.

فلما أطمأنت قريش بعثت عمير بن وهب الجمحى للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلونى أنظر للقوم كمين أو مدد؟

فضرب في الوادى حتى أبعد، فلم يرى شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبى جهل – المصمم على المعركة – تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دون قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا ابا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟

قال: وما ذاك ياحكيم ؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى – المقتول في سرية نخلة – فقال عتبة: قد فعلت ، أنت ضامن على بذلك. إنما هو حليفى، فعلى عقله (ديته) وما أصيب من ماله.

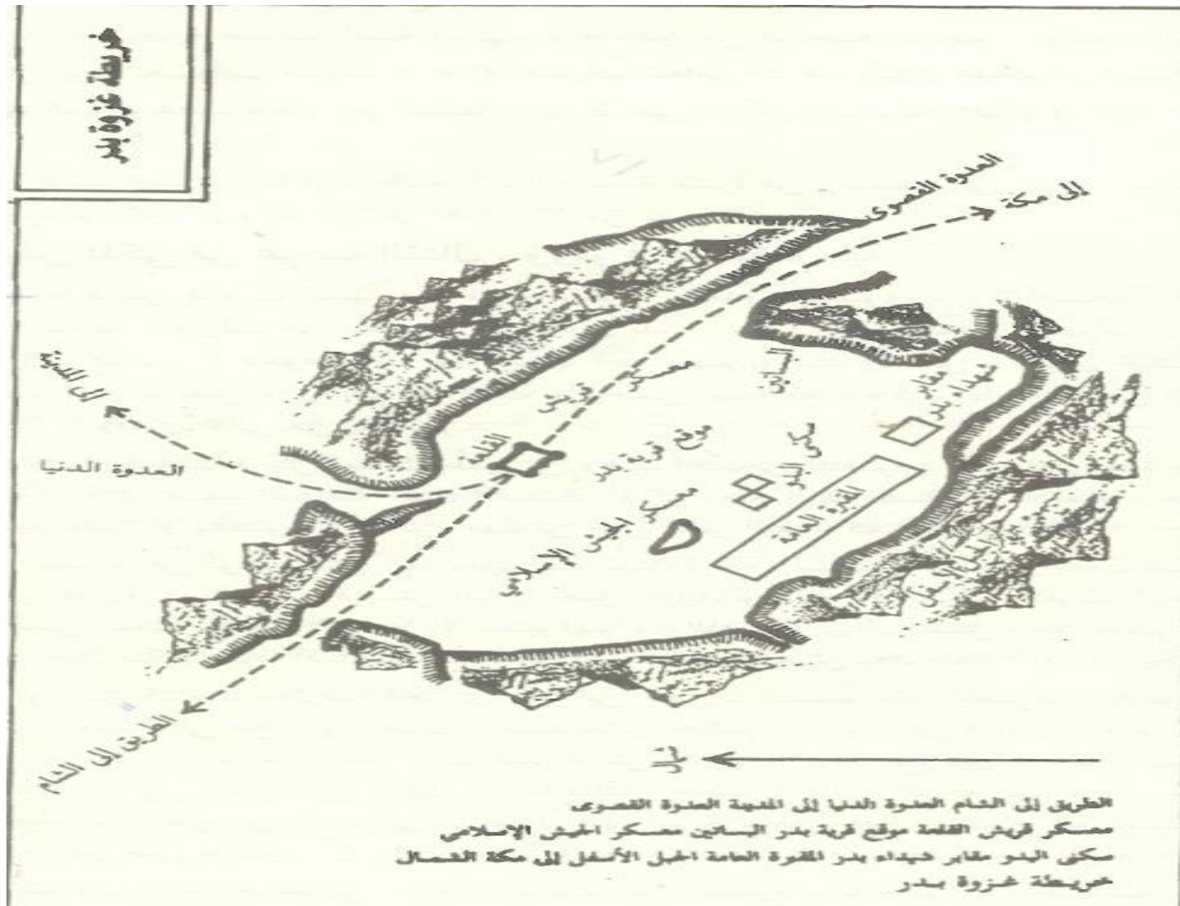
ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فائت بن الحنظلية – أبا جهل، والحنظلية أمه – فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن اصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فأرجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردت، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى ابي جهل – وهو يهيء درعاً له – قال: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره [1] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه – وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر – فتخوفكم عليه.



[1]- السحر : الرئه



ولما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سحره، قال عتبة: سيعلم مُصفر استه[١] من انتفخ سحره، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل، مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى – أخى عمرو بن الخضرمى المقتول في سرية عبد الله بن جحش الأسدى فقال: هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك[٢]

ومقتل أخيك، فقام عامر فكشف عن استه، وصرخ: واعمراه، واعمراه، فحمى القوم، وحقب [٣] أمرهم، واستثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

١- مصفر استه : أي ضراط
٢- الخفرة : العهد
٣- حقب : اشتد

ولما تراءى الجيشان:

ولما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم[١] الغداة).

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر: " إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا ".

موقف سواد:

وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يديه قدح يعدل به، وكان سواد بن غزية مستنصلاً [٢] من الصف، فطعن في بالقدح وقال: " استو يا سواد "، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتنى فأقدنى، فكشف عن بطنه وقال: " استقد "، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: " ما حملك على هذا يا سواد ؟ " قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك. فدعا له رسوالله صلى الله عليه وسلم بخير.

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بألا يبدوأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب، فقال: " إذا أكثبوكم – يعني اقتربوا منكم فارموهم، واستبقوا نبلكم[٣]، ولا تسلو السيوف حتى يغشوكم "[٤] ، ثم رجع إلى العريش هو وأبوبكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا تعرفه، فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عنده فانصره اليوم، وفي ذلك أنزل الله:(إنْ

١- أحنهم : أهلكهم
٢- مستنصلاً : متقدماً
٣- صحيح البخارى ٥٦٨/٢
٤- سنن أبى داود: باب في سل السيوف عند اللقاء ١٣/٢.

تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)) (الانفال)

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى – وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق – خرج قائلاً: أعاهد الله لاشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه.

فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فأطن[١]

قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

المبـــــارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم (عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة) فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار (عوف ومعوذ بن الحارث) (وأمهما عفراء) وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من انتم ؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بنى عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي " فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من انتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة – وكان أسن القوم – عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على على الوليد[٢]. فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرينهما أن قتلاهما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فاثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كر على وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فلم يزل

١- فأطن : أطار.
٢-

ضمناً[1] حتى مات بالصفراء، وبعد أربعة أو خمس أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة، وكان على يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم:(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) (الحج:١٩)

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة للمشركين؛ إذ فقدوا ثلاثة رجال من فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبا، وكرو على المسلمين كرة رجل واحد.

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم، واستغاثوا، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتوالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحد أحد.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه:

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول:" اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، حتى إذا حمى الوطيس، واستدارت رحى الحرب بشدة، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال:" اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً " وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألحت على ربك.

وأوحى إلى ملائكته (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)، وأوحى إلى رسوله (أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)) – أي أنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضاً أرسالاً، لا يأتون دفعة واحدة.

نزول الملائكة:

١-

وأغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة واحدة، ثم رفع أسه فقال:(أبشر يا أبا أبكر، هذا جبريل على ثناياه النقع " (أي الغبار). وفي رواية محمد بن إسحاق: قال رسول الله صلى الله عليه وسل:" أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان رسه يقوده، على ثناياه النقع".

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب العريش، وهو يثب في الدرع، ويقول:(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٤٥)) (القمر) ثم أخذ حفنه من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً وقال: " شاهت الوجوه " ورمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله:(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

الهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال:" شدوا" وحرضهم على المشركين منه[1]، وهو يقول في جزم وصراحة:(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فقاتل المسلمون أشد القتال ونصرتهم الملائكة، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها.

وقال ابن العباس: بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة[2] ".

وقال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال

---

[1]- رواه البخارى : كتاب التفسير : باب قوله: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (٤٨٧٥)، وأحمد في المسند ٣٢٩/١.

[2]- أ روى مثل ذلك مسلم ٩٣/٢ وغيره ، ويندر: ينقطع. واخضر: انقطع.

العباس: إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: " اسكت فقد أيدك الله بملك كريم ".

وقال على قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ولأبى بكر: " مع أحدكما جبريل ومع أحدكم ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو يكون في القتال[1] ".

أبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس – وكان قد جاء في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى كما ذكرنا، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت – فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارث بن هشام – وهو يظنه سراقة – فوكز في صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هارباً، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟ فقال:(إِنِّيَ أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨))(الانفال) ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر.

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، واخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، ححتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبى جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه أول ما رأى أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد في وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه ويقول في شراسة ومكابرة: لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد

---

[1]- أحمد في مسنده ١٤٧/١ ، والبزار (١٤٦٧) ، والحاكم في المستدرك ١٣٤/٣ ، وقد صححه ووافقه الذهبى، وأبو يعلى في مسنده ٢٨٤/١ ح (٣٤٠).

عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم بسوء صنيعهم.

ولكن سرعان ما تبدت له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم، بقى حوله عصابة من المشركين ضربت حوله سياجاً من السيوف، وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج، وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين.

مصرع أبى جهل:

قال عبد الله بن عوف رضى الله عنه: إنى لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه: يا عم: أرنى أبا جهل، فقلت: يابن أخى، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجب لذلك. قال: وغمزنى الآخر، فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول في الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه، قال: فابتدراه فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " أيكما قتله ؟ " فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: " هل مسحتما سيفكما ؟ " فقالا: لا. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال: " كلاكما قتله "، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء[1].

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة – والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبى جهل لحفظه بهذه الشجرة – وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال:

---

[1]- صحيح البخاري ٤٤٤/١ ، ٥٦٨/٢ ، ومشكاة المصابيح ٣٥٢/٢ ، وإنما خص بالسلب واحداً منهما لأن الثاني قتل شهيداً في نفس المعركة.

فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه – أطارتها – بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخه[١] ، النوى حين يضرب بها. قال: وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، واجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتني وضعت عليها قدمى، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها[٢] ، ثم مر بأبى جهل – وهو عقير– معوذ ابن عفراء فضربه حتى اثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ " فتفرق الناس في طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل اخزاك الله يا عدو الله ؟ قال: وبماذا اخزانى ؟ أأعمد من رجل قتلتموه ؟[٣] ، أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال: فلو غير أكار[٤] ، قتلنى، ثم قال: أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود – وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة.

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسو الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال:(الله الذي لا إله إلا هو؟) فرددها ثلاثاً، ثم قال:" الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه " فانطلقنا فأريته إياه، فقال: " هذا فرعون هذه الأمة ".

من روائع الإيمان في هذه المعركة:

لقد اسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث – ابن عفراء وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففى هذه االمعركة

---

[١]- المرضخة : الحجر الذي يكسر به النوى.
[٢]- بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه.
[٣]- أي ليس على عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.
[٤]- الأكار : الحراث.

التقى الآباء بالأبناء، والأخوة بالأخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه.

١. روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحداً من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً " فقال ابو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه – أو لألجمنه – بالسيف، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لعمر بن الخطاب: " يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف"، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا آمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

٢. وكان النهى عن قتل أبى البخترى؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب.

ولكن أبا البخترى قتل على الرغم هذا كله، وذلك أن المجذر بن زياد البلوى لقيه في المعركة ومعه زميل له، يقاتلان سوياً، فقال المجذر: يا أبا البخترى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟ فقال المجذر: لا والله ما نحن بتاركى زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله.

٣. كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه على بن أمية، آخذ بيده، ومع عبد الرحمن أدرع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك في ؟ فأنا خير من هذه الأدرع التي معك، ما رأيت

كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن ؟ – يريد من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن – فطرح عبد الرحمن الأدرع، وأخذهما يمشى بهما، قال عبد الرحمن: قال لى أمية بن خلف، وأنا بينه وبين أبنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره ؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى – وكان أمية هو الذي يعذب بلال بمكة فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قلت: أى بلال، أسيرى. قال: لا نجوت إن نجا. قلت: اتسمع يابن السوداء. قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[1]

وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدارعى، وفجعنى بأسيرى.

وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صياغتي – أي خاصتى ومالى – بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة ...

فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس الأنصار فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه ليشغلهم، فقتلوه، ثم أبو حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتخللوه

[1]- الأسورة.

بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه. وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[١].

٤. وقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة، ولم يلتفت إلى قرابته منه، ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الأسر: يا عباس أسلم، فوالله أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه إسلامك[٢].

٥. ونادى ابوبكر الصديق رضى الله عنه ابنه عبد الرحمن وهو يومئذ مع المشركين – فقال أين مالي يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق غير شكة ويعبوب * * * وصارم يقتل ضلال الشيب[٣]

٦. ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، ويعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحاً سيفه، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلى من اسبقاء الرجال.

٧. وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدى، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جذلاً من حطب، فقال:" قاتل بهذا يا عكاشة فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده.

---

[١]- صحيح البخارى : كتاب الوكالة ٣٠٨/١.
[٢]- رواه الحاكم في المستدرك (فتح القدير للشوكانى ٣٢٧/٢).
[٣]- الشكة: السلاح. واليعبوب: الفرس الكثير الجرى.

٨. وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير الذي خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصارى: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب أهذه وصاتك بى ؟ فقال مصعب: إنه – أى الأنصار – أخى دونك.

٩. ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القليب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه ابنه أبى حذيفة، فإذا هو كثيب قد تغير، فقال: " يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ " فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت في أبى ولا مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، وقال له خيراً.

نتائج المعركة:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة للمشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركين فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم سبعون، واسر سبعون، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على القتلى فقال:" بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس ".، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلب بدر.

وعن أبى طلحة: أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوى[1] من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام

[1] - البئر الذي بناؤه بالحجارة.

بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، وأتبعه أصحابه. حتى قام على شفة الركى[1] ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، " يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ " فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم:" والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" وفي رواية: " ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون "[2].

فرار المشركين بصورة غير منظمة:

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة، تبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش الحسيمان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك ؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، في رجال من الزعماء سماهم. فلما أخذ يعد اشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عنى. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع – مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت غلاماً للعباس وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يكتم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر كبته الله واخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح، أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة [3] فكان ظهره إلى ظهرى، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو

١- الركى : البئر.
٢- متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٣٤٥/٢.
٣- طنب الحجر : طرفها

سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إلى، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه. فقال: يابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بُلق بين السماء والأرض والله ما تُليق[١] شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

نهاية أبى لهب:

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجر بيدى، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهى ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملنى فضرب بى الأرض، ثم برك على يضربنى، وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أم الفضل إلى عمود من عُمد الحجرة فأخذته، فضربته به ضربة فلعت[٢] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (وهي قرحة تتشاءم بها العرب) فقتلته، فتركه بنوة، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفعه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً، حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكى عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلاً صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: أنظر هل أحل النحب[٣] ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة – ابنه – فإن جوفي قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

١- أي لا تبقى شيئاً
٢- شقت
٣- البكاء بصوت

اتبكى أن يضل لها بعير * * * ويمنعها من النوم السُهود [1]

فلا تبكى على بكر ولكـــن * * * على بدر تقاصرت الجُدود [2]

بدر سراة [3] بنى هصيص * * * ومخزوم ورهــط أبى الوليد

وبكى إن بكيت على عقيل * * * وبكى حارثاً أسد الأســود

وبكيهم ، ولا تسمى جميعاً * * * وما لأبى حكيمة من نديد

ألا قد ساد بعدهم رجـــال * * * ولولا يوم بدر لم يــسودوا

وصول أنباء النصر إلى المدينة:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيرين إلى أهل المدينة؛ ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن الحارثة بشيراً إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبى صلى الله عليه وسلم، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواء – ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال: لقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب، وجاء فلاٌ[4].

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة – إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين.

[1]- الأرق
[2]- الحظوظ
[3]- سراة : خيار
[4]-

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفنى عليها مع عثمان.

عودة الجيش النبوى إلى المدينة:

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاث أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يرد الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة.

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فأنزل الله:(**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (١)) (الأنفال). فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين[١].

وبعد أن قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاث أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس.

١- روى ذلك أصحاب الصحاح ، أنظر : سنن أبى داود مع حاشية عون المعبود ١٢/٣.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث – وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمى قريش، ومن أشد الناس كيداً للإسلام وإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم – فضرب عنقه على بن أبى طالب.

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبى معيط – وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة، وهو الذي خنقه بردائه وكاد يقتله، لولا اعتراض أبى بكر رضى الله عنه – فلما أمر بقتله قال: من للصبية يا محمد ؟ قال:" النار ". فقتله عاصم بن ثابت الأنصارى، ويقال على بن أبى طالب.

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً نظراً إلى سوابقهما، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمى الحرب بالاصطلاح الحديث.

وفود التهنئة:

ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى الروحاء لقيه رءوس المسلمين – الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين – وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة، فنحرناها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: " يا بن أخى، أولئك الملأ ".وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صدقت ".

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيراً. فكان الصحابة يأكلون التمر، ويقدمون لأسرائهم الخبز، عملاً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة استشارى أصحابه في الأسارى، فقال أبوبكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ترى يا بن الخطاب ؟ " قال: قلت: والله ما أرى رأى أبوبكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان – قريب لعمر – فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء: فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة " – شجرة قريبة[1].

وأنزل الله تعالى:(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)) (الانفال).

والكتاب الذى سبق من الله قيل: هو قوله تعالى:(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) (محمد:٤) ففيه بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في

[1]- تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص٣٦.

الأرض، وقيل: بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذي سبق من الله هو ما كان فيعلم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث أن الأمر كان قد استقر على رأى الصديق فقد أخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتوبن، وأهل المدينة يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء.

ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدة من الأسارى فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب ابن حنطب، وصيفى بن أبى رفاعة، وأبو عزة الجُمحى، وهو الذي قتله أسيراً في أحد، وسيأتى.

ومن على ختنه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب، وكانت قد بعثت فيفدائه بمال بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبى العاص، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبى العاص ففعلوه، واشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، فخلاها فهاجرت، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: " كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها " فخرجا حتى رجعا بها. وقصة هجرتها طويلة ومؤلمة جداً.

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيباً مصقعاً[١]، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع[٢] لسانه، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض هذا الطلب؛ احترازاً عن المثلة، وعن بطش الله يوم القيامة.

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان، وكان ابنه عمرو بن ابى سفيان في الأسرى، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد.

سورة الأنفال تتحدث حول موضوع المعركة:

[١]- بليغاً
[٢]- يخرج.

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، وهذه السورة تعليق إلهى – إن صح هذا التعبير – على هذه المعركة، يختلف كثيراً عن التعاليق التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح.

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولاً – إلى بعض التقصيرات الأخلاقية التي كانت بقية فيهم، وصدر بعضها منهم؛ ليسعوا في تحلية نفوسهم بأرفع مراتب الكمال، وفي تزكيتها عن هذه التقصيرات.

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد لله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله، ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول صلى الله عليه وسلم لأجلها المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تتسبب في الفتوح في المعارك.

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، ووعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والالتزام به.

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويتفقون المسلمون في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظر، بل هو دين يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها.

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبينة أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى تخفيفاً لكثير من الأوزار

التي كان يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال ٢هـ، أثر الفتح المبين الذي حصل لهم في غزوة بدر.

فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنيناً إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم به من النعم، وأيدهم به من النصر، وقد ذكرهم بذلك قائلاً:(**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦))(الأنفال)**

الفصل الثالث

ظهور الأخطار ... بعد الإنتصار

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة. والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وهم المشركون، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني الاقتصادى، وهم اليهود. فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين؛ (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (المائدة: ٨٢)، وكانت في البطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لعزهم إلا في الإسلام، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين.

وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخذهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا

أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعل يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء.

وتبين بهذا أن الانتصار في بدر كما كان سبباً لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم كذلك كان سبباً لحقد جهات متعددة، وكان من الطبيعي أن يتبع كل فريق ما يراه كفيلاً لإيصال إلى غايته.

فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام، وتأخذ في طريق المؤمرات والدسائس الخفية كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة، وتكاشف عن الحقد والغيظ، وكانت مكة تهدد باالضرب القاصم، وتعلن بأخذ الثأر والنقمة، وتهتم بالتعبئة العامة جهاراً، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها، تقول:

ولا بد من يوم أغر مُحجل * * * يطول استماعى بعده للنوادب

وفعلاً فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد، والتي كان لها أثر سيئ على سمعة المسلمين وهيبتهم.

غزوة بني سُليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد بدر أن بنى سليم وبنى غطفان تحشد قواتها لغزوة المدينة، فباغتهم النبي صلى الله عليه وسلم في مائتى راكب في عقر دارهم، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له: الكُدر[1]. ففر بنو سليم، وتركوا في الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلام يقال له: " يسار " فأعتقه.

---

[1]- الكدر، بالضم فالسكون : طير في لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم في ديارهم ثلاث أيام، ثم إلى المدينة. وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، أو في المحرم للنصف منه، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة، وقيل: ابن أم مكتوم[١].

مؤامرة لإغتيال النبي صلى الله عليه وسلم:

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن استشاطوا غضباً، وجعلت مكة تغلى كالمرجل ضد النبي صلى الله عليه وسلم، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير – وكان عمير من شياطين قريش ممن كانوا يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبتُ إلى محمد حتى قتلته، فإن لى قبلهم علة، ابنى أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان وقال: على دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى، أواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عنى شأنى وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب – وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر – فقال عمر: هذا الكلب عدوا الله عمير ما جاء إلا لشر.

---

[١]- زاد المعاد ٢/ ٩٠ . وابن هشام ٤٣/٢ ، ٤٤.

ثم دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال: " فأدخله علي " فأقبل إلى عمير فلببه بحمالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: أدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجلسوا عنده وأحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم- وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه – قال: " أرسله يا عمر، أدن يا عمير" فدنا وقال: أنعموا صباحاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة ".

ثم قال: " ما جاء بك يا عمير؟ " قال: جئت لهذا الأسير الذى في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: " فما بال السيف في عنقك" ؟ قال: قبحها الله من أسيوف، وهل أغننت عنا شيئاً ؟ قال: " اصدقنى، ما الذى جئت له ؟ " قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: " بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى، والله حائل بينك وبين ذلك".

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمدلله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره ".

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تاتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير[١].

[١]- ابن هشام ١/ ٦٦١ – ٦٦٣.

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود، وقد كان حريصاً كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة، وفعلاً لم يأتي من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها. ولكن اليهود الذين ملأ تاريخهم بالغدو والخيانة ونكث العهود، لم يلبثو أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين. وهاك مثلاً من ذلك:

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس – وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا[١]، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظة ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه، فقال: أعمد إليهم، فأجلس معهم ثم أذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عن ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة – يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم – وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا قد فعلنا، موعدكم الظاهرة – والظاهرة : الحرة – السلاح – السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

١- كبر.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيما معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال:(يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وألف بين قلوبكم ؟).

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، واعتنق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[١].

هذا نموذج ما كان اليهود يفعلونه ويحاولنه من إثارة القلاقل والفتن في المسلمين، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كانت لهم خطط شتى في هذا السبيل، فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء، وكانوا يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلون بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانو يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذا صبوت فليس لك علينا من سبيل[٢].

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصاً على رشدهم وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة.

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً في ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب القاصي والداني، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

١- ابن هشام ١/٥٥٥ – ٥٥٦.
٢- ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها.

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شراً كعب بن الأشراف – وسيأتى ذكره – كما أن شر طائفةمن طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة – في حي باسمهم – وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والاواني، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا اشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم، ووتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغى والعدوان، ولكنهم أزدادوا في شرهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن أبن عباس رضى الله عنه قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بنى قينقاع. فقال:(يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً). قالو: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)) (آل عمران) [١]

كان في معنى ما أجاب به بنى قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبى صلى الله عليه وسلم غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى والأيام.

وازداد اليهود – من بنى قينقاع – جراءة، فقلما لبثوا أن أثروا في المدينة قلقاً واضطراباً، وسعوا إلأى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

[١]- سنن أبى داود مع عون المعبود ١١٥/٣ ، وابن هشام ٥٥٢/١.

روى ابن هشام عن أبى عون: أن أمراة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته في سوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها – وهي غافلة – فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله – وكان يهودياً – فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[1].

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عيل صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ، ودام الحصار خمسة عشر ليلة إلى هلال ذى القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم – فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبى سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدر عنهم العفو، فقال: يا محمد، أحسن في موالى – وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج – فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرر ابن أبى مقالته فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرسلنى" وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلُلاً [2]، ثم قال: " ويحك، أرسلنى" ولكن المنافق مضى على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى اربعمائة حاسر[3]، وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر.

١- ابن هشام٢ /٤٧ ، ٤٨.
٢- كناية عن تغير وجه النبي صل الله عليه وسلم.
٣- لا درع له.

وعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنافق – الذي لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر فحسب – عامله بالحسنى. فوهبهم له، ,امرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أموالهم فأخذ منها ثلاث قسى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمس غنائمهم، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة[١].

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكرفي عمل قليل المغارم ظاهر الأثر، يتعجل به؛ ليحفظ مكان قومه، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابه حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتى راكب ليبر يمينه، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: ثيب، من المدينة على بريد[٢] أو نحوه، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً ، فقام بعمل هو اشبه بأعمال القرصنة، فإنه دخل في ضواحى المدينة ففي الليل مستخفياً تحت جنح الظلام، فأتى بن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف، فانصرف إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير، وصاحب كنزهم إذ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فقراه وسقاه الخمر، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها: " العُريض " فقطعوا وأحرقوا هناك أصواراً[٣] من النخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فسارع لمطاردة أبى سفيان وأصحابه، ولكنهم فروا ببالغ السرعة، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتموىناتهم، يتخففون به، فتمكنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً، وحمل

١- زاد المعاد ٧١/٢ ، ٩١ ، وابن هشام ٤٧/٢-٤٩.
٢- البريد: مسافة اثنى عشر ميلاً
٣- جماعة.

المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق. وقد وقعت في ذى الحجة سنة ٢هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر [١].

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣هـ.

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً كبيراً من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، وخرج في اربعمائة وخمسون مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

وفي أثناء المدينة قبضوا على رجل يقال له: جبار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرق الأعداء في رؤس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة، أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد وصل إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى " بذى أمر " فأقام هناك صفراً كله – من سنة ٣هـ أو قريباً من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ويستولى عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة[٢].

قتل كعب بن الأشراف

١- زاد المعاد ٩٠/٢ ، ٩١ ، وابن هشام ٤٤/٢ ، ٤٥.

٢- ابن هشام ٤٦/٢ ، وزاد المعاد ٩١/٢ ، ويذكر أن محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم من قبل دعثور أو غورث المحاربى كانت في هذه الغزوة. والصحيح أنها كانت في غير هذه الغزوة ، أنظر صحيح البخارى ٥٩٣/٢.

كان كعب بن الاشراف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتظاهراً بالدعوة إلى حربه.

كان من قبيلة طيئ – من بنى نبهان – وأمه من بنى النضير، وكان غنياً مترفاً معروفاً بجماله في العرب، شاعراً من شعرائها. وكان حصنه في شرق جنوب المدينة خلف ديار بنى النضير.

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش في بدر قال: أحق هذا ؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكى حقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلاً ؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً، وأفضل، وفي ذلك أنزل الله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)) (النساء)

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء.

من لكعب بن الأشراف:

وحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من لكعب بن الأشراف؟ فإنه آذى الله ورسوله فانتدب له محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وأبو نائلة – واسمه سلكان بن سلامة،

وهو أخو كعب من الرضاعة – والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة.

وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشراف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال: " :" من لكعب بن الأشراف؟ فإنه آذى الله ورسوله قام محمد بن مسلمة، أنا يارسول الله، أتحب أن أقتله ؟ قال:" نعم ". قال: فأذن لى أن أقول شيئاً. قال:" قل".

خداع المسلمين لكعب بن الأشراف:

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألناه صدقة، وإنه قد عنانا[١].

قال كعب: والله لتملنه.

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

قال كعب: نعم، أرهنونى.

قال مسلمة: أي شيء تريد ؟.

قال: أرهنونى نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنونى أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال: رُهن بوسق أو وسقي هذا عار علينا. ولكنا نرهنك اللأمة، يعنى السلاح.

فواعده أن يأتيه.

١- أتعبنا.

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع ممحمد بن مسلمة، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة، ثم قال له: ويحك يا بن الأشراف، إنى جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد علينا، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة، وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إن معى أصحاباً لى على مثل رأيى، وقد أردت أن أتيك بهم، فتبيعهم وتحسن في ذلك.

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فيهذا الحوار إلى ما قصد، فإن كعباً لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

في ليلة مقمرة:

في ليلة مقمرة – ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ – اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشيعهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم قائلاً:(انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)، ثم رجع إلى بيته، وطفق يصلى ويناجى ربه.

صوت كأنه يقطر منه الدم:

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشراف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته وكان حديث العهد بها: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم.

قال كعب: إنما هو أخى محمد بن مسلمة، ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم إذا دعى إلى طعنة أجاب، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح راسه.

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فأضربوه، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا

بن الأشراف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو في الطريق: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر منك، وزهى كعب بما سمع، فقال: عندى أعطر نساء العرب، قال ابو نائلة: أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال كعب: نعم، فعاد لمثلها. حتى اطمأن. ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال كعب: نعم، فعاد لمثلها. حتى اطمأن. فأدخل يده في رأسه، فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله، فاختلفت عليه اسيافهم، لكنها لم تغن شيئاً، فأخذ محمد بن مسلمة مغولاً[١] فوضعه في ثنته[٢] ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدو الله قتيلاً، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران.

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب[٣]، بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم، فلما بلغت المفرزة حرة العريض رأت أن الحارث ليس معهم، فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم، فاحتملوه، حتى إذا بلغو بقيع الغرقد كبروا، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبر، فلما انتهو إليه قال: " أفلحت الوجوه"، قالوا: ووجهك يا رسول الله، ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل على جرح الحارث فبرأ، ولم يؤذ بعده[٤].

موقف اليهود بعد مصرع طاغيتها " كعب بن الأشراف ":

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشراف دب الرعب في قلوبهم العنيدة، وعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يحركوا

١- المغول : السكين.
٢- الثنة : ما بين السرة والعانة.
٣- ذباب السيف : طرفه
٤- أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٥١/٢ ــ ٥٧ ، وصحيح البخارى ٣٤١/١ ، ٤٢٥ ، ٥٧٧/٢ ، وسنن أبى داود مع عون المعبود ٤٢/٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٩١/٢.

ساكناًلقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها.

وهكذا تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم – إلى حين – لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها من خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم الكثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى.

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الآخر ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بحران – وهى معدن بالحجاز من ناحية الفرع – فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأول (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حرباً[١].

* * *

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبلأحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣ هـ.

أحداثها:

أن قريش بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتهاإلى الشام، فأخذها هم آخر.

أين نسلك؟

[١]- ابن هشام ٢/ ٥٠ ، ٥١ وزاد المعاد ٢ / ٩١، وختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة. فقيل: إن استخبارات المدينة نقلت إلىرسول الله صلى الله عليه وسلم أن بنى سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها، وقيل: بل خرج يريد قريشاً، وهذا الثانى هو الذي ذكرهابن هشام واختاره ابن القيم – حتى لم يذكر الأول رأساً.

قال صفوان بن أمية لقريش – وهو الذى نخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام: إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك؟ وإن قمنا في دارنا هذه أكلنا رؤس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع، فقال الأسود بن عبدالمطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق – وهى طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام، وتمر في شرقى المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذا الطريق كل الجهل – فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان – من بنى بكر بن وائل – دليلاً له، ويكون رائده في هذه الرحلة.

قصة القافلة .. تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديد، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن سليط بن النعمان – كان قد أسلم – اجتمع في مجلس شرب – وذلك قبل تحريم الخمر – مع نعيم بن مسعود الأشجعى –ولم يكن اسلم إذ ذاك – فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها، فأسرع سليط إلى النبي صلى الله عليه وسلم يروى له القصة.

تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم لسرية زيد بن حارثة:

وجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبى.

وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة – على حين غرة – وهي تنزل على ماء في ارض نجد يقال له: قردة – بالفتح فالسكون – فاستولى عليها كلها، ولم يكن صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة.

غنيمة المسلمين للقافلة والأسرى:

وأسر المسلمون دليل القافلة – فرأت بن حيان، وقيل: ورجلين غيره ، وحملوا غنيمة كبيرة من الأوانى والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس، وأسلم فرات بن حيان على يديه صلى الله عليه وسلم[١].

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرةأصابت قريشاً بعد بدر، اشتد لها قلق قريش وزادتها هماً وحزناً، ولم يبقى أمامه إلا طريقان، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد، وعزها القديم، وتقضى على قوات المسلمين بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا وذاك، وقد اختارت مكة الطريق الثاني، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو في ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد.



١- ابن هشام ٢/ ٥٠ ، ٥١.

الفصل الرابع

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

حرب شاملة ضد المسلمين:

وعلى أثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد السلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وأبوسفيان بن حرب، وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة.

ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله:

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان، والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم[١] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) (الأنفال:٣٦)

١- ظلمكم.

التأليب على المسلمين:

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعاً من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر– الذى كان قد أسر في بدر، فمن عليه الصلاة والسلام وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده – أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده إنه إن رجع عن الغزوة حياً يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكى حفائظهم، كما اختاروا شاعراً آخر – مسافع بن عبد مناف الجمحى – لنفس المهمة.

خيبة أبو سفيان:

وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعدما رجع من غزوة السويق خائباً لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقداراً كبيراً من تمويناته ففي هذه الغزوة.

خسائر قريش في سرية زيد بن حارثة:

وزاد الطينة بلة – أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير – ما اصابا قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحيئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوة جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس [1]، جنبوها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبى جهل. أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت التارات القديمة والغيظ الكامن يشغل البغضاء في القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يراقب حركات قريش واستعدادتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

تسليم الرسالة إلى النبى صلى الله عليه وسلم:

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة – التي تبلغ مسافتها نحو خمسمائة متر – في ثلاثة ايام، وسلم الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجد قباء.

قرأ الرسالة على النبي صلى الله عليه وسلم أبى بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار.

استعداد المسلمين للطوارئ:

حالة استنفار عام في المدينة:

---

[1]- زاد المعاد ٩٢/٢ وهو المعروف ، وفي فتح البارى: مائة فرس ٣٤٦/٧.

وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة، استعداداً للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار – فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة – بحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح. وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها؛ خوفاً من أن يؤخذوا على غرة.

وقامت دوريات من المسلمين – لاكتشاف تحركات العدو – تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكى إلى أسوار المدينة:

محاولة نبش قبر أم رسول الله صلى اله عليه وسلم:

وتابع جيش مكة سيره على الطريقة الغربية المعتادة، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة – زوج أبى سفيان – بنبش قبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب.

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدين، فسلك وادى العقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريباً بجبل أحد، في مكان يقال له عينين، في بطن السبخة من قناة على شفير الوادى – الذي يقع شمالى المدينة بجنب أحد، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الإستشاري لأخذ خطة الدفاع:

رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأويلها:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبراً بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً إستشارياً عسكرياً أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال:" إنى قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً يذبح،

ورأيت في ذباب سيفى ثُلماً، ورأيت إني أدخلت يدى في درع حصينة "، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

التحصن بالدرع الحصينة (المدينة):

ثم قدم رأيه إلى صحابته ألا يخرجو من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدو، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين – وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. ويبدوا أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه – لاول مرة – أمام المسلمين وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعاتهم على تلك الأفاعى التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

تنازل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رأيه:

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم، فأشاروا على النبي صلى لله عليه وسلم بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائهم: يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، أخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم.

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم – الذي كان قد أبلى أحسن بلاء في معركة بدر – فقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[1].

[1] - السيرة السيرة الحلبية ١٤/٢.

وتنازل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر.

خروج الجيش الإسلامي إلى القتال:

ثم صلى النبي صلى الله علي وسلم صلاة الجمعة والعصر بالناس، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العوالى، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبوبكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بالسلاحه وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع) وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

لبس الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته:

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه، فندموا جميعاً على ما صنعوا فلما خرج قالوا له: يارسول الله، ما كان لنا أن نخالفك فأصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فأفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته – وهي الدرع – أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه "[١].

تقسيم الجيش:

وقسم النبي صلى الله عليه وسلم الجيش إلى ثلاث كتائب:

١. كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدرى.

٢. كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسير بن حضير.

٣. كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

[١]- رواه أحمد ٣٥١/٣ ، والنسائى والحاكم وابن إسحاق ، وذكره البخارى في الاعتصام في ترجمة باب ٢٨.

وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل فيهم مائة دارع، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد[١]، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى في المدينة، وآذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام االنبي صلى اللهه عليه وسلم يعدوان دارعين.

ولما جاوزا ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج [٢] يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين، فسأل: " هل أسلموا؟ " فقالوا: لا، فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له:" الشيخان " استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مضيقاً للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زي، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدرى، وزيد بن حارثة الأنصارى، وسعد بن حبة، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب، لكن حديثه في البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم.

وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع، أنا اصرعه ، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه أيضاً.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك واختار خمسين رجل لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى، بطل كعب بن الأشراف، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

---

[١]- قال ابن القيم في الهدى ٩٢/٢: وخمسون فارساً. قال ابن حجر: هو غلط بين. وقد جزم موسى ابن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل، ووقع عند الواقدى : كان معهم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس لأبى بردة (فتح البارى ٣٥٠/٧).

[٢]- روى ذلك بن سعد ، وفيه: أنهم من بنى قينقاع (٣٤/٢) ، ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر.

تمرد عبد الله بن أبى والبلبلة في جيش المسلمين:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر، وكان بمقربة جداً من العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمر عبد الله بن أبى المنافق، فانسحب بنصف ثلث العسكر– ثلاثمائة مقاتل – قائلاً: ما ندرى علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى. ولو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيس من هذا التمرد – في ذلك الظرف الدقيق – أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

إذهمت طائفتان منكم أن يتقتلا:

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان – بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج – أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سرى فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والأنسحاب، وعنهما يقول الله تعالى:(إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)) (آل عمران)

تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو أدفعوا:

وحاول عبد الله بن حرام – والد جابر بن عبد الله – تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل

الله أو أدفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم نبيه.

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى:(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)) (آل عمران)

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي صلى الله عليه وسلم ببقية الجيش – وهم سبعمائة مقاتل ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فقال: " من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم؟ "

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرة بنى حارثة وبمزارعهم، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب.

أعمى القلب ..

ومر الجيش في هذا الطريق بحائط مربع بن قيظى – وكان منافقاً ضرير البصر – فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر".

ونفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادى، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

الرماة الماهرين:

وهناك عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه، وهيأهم صفوفاً للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادى قناة – وعرف فيما بعد بجبل الرماة – جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد مائة وخمسون متراً من مقر الجيش الإسلامي.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة، فقد قال لقائدهم: " انضح الخيل عنا بالنبل، لايأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك "[١] وقال للرماة: " احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشاركونا "[٢] ، وفي رواية البخارى أنه قال:" إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأنهم فلا تبرحوا أرسل إليكم " [٣].

سد الثلمة الوحيدة:

بتعين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

عبقرية قيادة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- ابن هشام ٦٥/٢ ، ٦٦.
٢- روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس . انظر : فتح البارى ٣٥٠/٧.
٣- صحيح البخارى : كتاب الجهاد ٤٢٦/١.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً، تتجلى فيها عبقرية النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية، وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا؛ فقد احتل أفضل موضع في ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فإنه حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره – حين يحتدم القتال – بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمى به، إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين – ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطارين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوض النقص العددى في رجاله باختيار نخبة ممتازة من **أصحابه الشجعان البارزين.**

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ.

الرسول صلى الله عليه وسلم من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأخذ في اقتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين[١]، وحرض أصحابه على القتال وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه: " من يأخذ هذ السيف بحقه؟ " فقام إليه رجال ليأخذوه – منهم على بن أبى طالب، الزبير بن العوام، عمر بن الخطاب – حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله ؟ قال: " أن تضرب به وجه العدو حتى ينحنى ". قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

أبو دجانة:

١- أي لبس درعاً فوق درع.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن".

تعبئة الجيش المكى:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر بن حرب الذى تمركز في قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد – وكان إذ ذاك مشركاً – وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة.

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التى ورثوها من قصى بن كلاب – كما أسلفنا في أوائل الكتاب – وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك؛ تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر، بيد القائد العام – أبا سفيان – ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ليستفز غضبهم ويثير حميتهم: يا بنى عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فتكفيكموه.

ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبى سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعده وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى ابيدوا عن بكرة أبيهم.

محاولات إيقاع الفرقة بين المسلمين من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين.

المحاولة الأولى:

أرسل أبوسفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلو بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم، ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لا تقوم له الجبال فقد رد عليه الأنصار رداً عنيفاً، وأسمعوه ما يكره.

المحاولة الثانية: أبو عامر الفاسق

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاول أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إلى الأنصار عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق – واسمه عبد عمرو بن صيفى، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به [١]، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه – فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة. فنادى قومهم وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر.(ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة).

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان. وبدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة.

جهود نسوة قريش في التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على

١- يقال: شرق بريقه : أي غُص.

القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

ويها بنى عبد الدار

ويها حماة الأدبار

ضلرباً بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن:

إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق[1]

ساعة الصفر: (وثبة ليث)

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وآنت مرحلة القتال، وكان أول وقود المعركة حامل الواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير ولم يمهله، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه. ورأى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصراع الرائع فكبر، وكبر المسلمون واثنى على الزبير، وقال في حقه:" إن لكل نبي حوارياً، وحوارى الزبير "[2].

قتل حملة لواء المشركين:

١- الوامق: المحب.
٢- ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢/١٨.

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبى طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقاً * * * أن تخضب الصعدة [١] أو تندقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة، فرماه سعد بن أبى وقاس بسهم أصاب حنجرته، فأدلع[٢] لسانه ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إليه علي بن أبى طالب، فضربه علي فقتله.

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبى طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته. وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقضى عليه.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبى طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان – وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام – ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى، فقتله قزمان أيضاً، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشمى العبدرى فقتله قزمان أيضاً.

سقوط لواء المشركين على الأرض:

١- الصعدة : القناة.
٢- خرج.

فهولاء عشرة من بنى عبد الدار– من حملة اللواء – أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء. فتقدم غلام لهم حبشى – أسمه صؤاب – فحمل اللواء، وابدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به موالية من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط، حتى قتل وهو يقول: اللهم أعزرت ؟ يعنى هل أعذرت ؟

وبعد أن قتل هذا الغلام صؤاب – سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقى ساقطاً.

القتال في بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال المرير يجرى في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تنقطع أمامه السدود، وهم يقولون: " أمت، أمت" كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد.

العصابة الحمراء (عصابة الموت):

أقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء، آخذاً بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، مصمماً على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركاً إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هداً. قال الزبير بن العوام: وجدت في نفس حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعينه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت – أى في نفسى: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى * * * ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول[1] * * * أضرب بسيف الله والرسول

---

[1] - الكيول : آخر الصفوف يعنى أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف ، بل يظل أبداً في المقدمة.

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه[١]،

فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، فضربه أبو دجانة فقتله[٢].

إكرام سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ثم أمعن أبو دجانة في هذه الصفوف، حتى خلص إلى قائد نسوة قريش، وهو لا يدرى بها، قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يخمش[٣] الناس خمشاً شديداً، فصمدت له[٤]، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة. قال الزبير بن العوام: رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم[٥].

إغتيال الكرام .. في حلك الظلام:

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة، فقد أندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملى لواء المشركين فعل الأفاعيل بابطالهم الآخرين، حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

١- أجهز عليه واسرع قتله.
٢- ابن هشام ٦٨/٢ ، ٦٩.
٣- يشجع على القتال.
٤- قصدت نحوه.
٥- ابن هشام ٦٩/٢.

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس – وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئاً – فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس هداً ما يقوم له شيء، فوالله إنى لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلى يابن مقطعة البظور – وكانت أمه ختانة – قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه[1].

قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، فوقعت في ثنته – أحشائه – حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيتيه فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت[2].

السيطرة على الموقف:

وبالرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله. فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فل عزائم المشركين، وفت في أعضادهم.

من أحضان زوجته إلى رضا ربه وجنته:

١- أخطأ رأسه : يقال عند المبالغة في الإصابة.

٢- ابن هشام ٦٩/٢ – ٧٢ ، صحيح البخارى ٥٨٣/٢ – أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف ، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان.

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل – وهو حنظلة بن أبى عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذ سمى بالفاسق، والذى مضى ذكره قريباً – كان حنظلة حديث عهد بالعرس، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبى سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الاسود فضربه حتى قتله.

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول صلى الله عليه وسلم على جبل الرماة يد بيضاء في إدرة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ثلاث مرات؛ ليحطوا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، لكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث[١].

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف كله حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كان ثلاث ألف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمين في أعلى صور الشجاعة واليقين.

عجز وخور قريش:

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها، حتى لم يجترى أحد منها ان يدنوا من لوائها الذي سقط بعد مقتل صؤاب

١- انظر : فتح البارى ٣٤٦/٧.

فيحمله ليدور حول القتال – فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم بالمعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

وروى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتنى أن أنظر إلى خدم – سوق – هند بنت عتبة وصوحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ...إلخ(١).

وفي حديث البراء بن عازب عند البخارى في الصحيح: فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشددن في الجبل، يرفعن سوقهن حتى بدت خلاخليهن(٢). وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم.

مخالفة الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة اخرى نصراً ساحقاً على أهل مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي أكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً، وأدت بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت أن تكون سبباً في مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، وعلى الهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء الرماة، بزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة، ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة لما رأى هؤلاء الرماة المسلمين ينتهبون غنائم العدو غلبت عليهم أُثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة ، الغنيمة ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟

موقف قائد الرماة (عبد الله بن جبير):

١- ابن هشام ٧٧/٢.
٢- صحيح البخارى ٥٧٩/٢.

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً، والله لنأتين الناس فلنصيبن الغنيمة[1].

ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش ليشاركوه في جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين؛ ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

فرصة ذهبية للمشركين:

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكر بسرعة إلى جبل رماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم – وهي عمرة بنت علقمة الحارثية – فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شقى الرحى.

شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم منقطعة النظير:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ في مفرزة صغيرة – تسعة نفر من أصحابه[2] – في مؤخرة المسلمين[3]، كان يراقب في مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة، فكان أمامه طريقان: إما أن ينجو – بالسرعة – بنفسه

[1]- صحيح البخارى ٥٧٩/٢.
[2]- في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.
[3]- يدل عليه قوله تعالى : (والرسول يدعوكم في آخركم)

وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد. وهناك تجلت عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادى أصحابه: " إلي عباد الله " وهو يعرف أن المشركين يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق. وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمون في الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم، فلم تكن تهمها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدرى ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى ما فوق الجبل. ورجعت طائف أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران فلم يتميزا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض. روى البخارى عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أى عباد الله أخراكم – أى احترزوا من ورائكم – فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أى يا عباد الله أبى أبى. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله[١].

إنهيار الروح المعنوية للمسلمين (إن محمداً قد قتل):

وهذه الطائفة قد دخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون؛ لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح: إن محمداً قد قتل، فطارت بقية صوابهم، وإنهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في في نفوس كثير من أفرادها. فتوقف من

١- صحيح البخارى ٥٣٩/١ ، ٥٨١/٢ وفتح البارى ٣٥١/٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكرغير البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي صلى الله عليه وسلم.

توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكيناً، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبى – رأس المنافقين – ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان واهاً لريح الجنة، ومر بهؤلاء أنس بن النضير، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون ؟ فقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اللهم إنى اعتذرت إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد، إن أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عُرف حتى عرفته أخته – بعد نهاية المعركة – ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم[١].

ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن محمد قد قتل، فإن الله حى لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه[٢].

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم[٣].

لا تراجع ولا إستسلام:

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكر الاستسلام أو الاتصال بابن أبى، وأخذوا سلاحهم يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى صلى الله عليه وسلم كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة إلى قوتهم، فنجحوا في الإفلات عن التطويق، وفي التجمع حول مركز منيع، بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

١- زاد المعاد ٩٣/٢ ، ٩٦ ، صحيح البخارى ٥٧٩/٢.
٢- السيرة الحلبية ٢٢/٢.
٣- زاد المعاد ٩٦/٢.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يهمهم إلا رسول الله، فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمل التطويق في بدايته، وفي مقدمة هؤلاء أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبى طالب وغيرهم رضى الله عنهم في مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة – عليه الصلاة والسلام – صاروا في مقدمة المدافعين.

احتدام القتال حول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وبينما كانت تلك القبائل تتلقى أواصر التطويق، وتطحن بين شقى رحى المشركين، كان العراك محتدماً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدءوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تسعة نفر، فلما نادى المسلمون: " هلموا إلى، أنا رسول الله " سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحدمن جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نواد الحب والتفانى والبسالة والبطولة.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوا قال:"من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقى في الجنة؟ " فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوا أيضاً فقال: " من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى في الجنة ؟ " فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه – أي القريشين: ما أنصفنا أصحابنا"[١].

وكان آخر هؤلاء السبعة عمارة بن زيد بن السكن، قاتل حتى اثبتته الجراحة فسقط[٢].

أحرج ساعة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

١- صحيح مسلم : باب غزوة أحد ١٠٧/٢.
٢- وبعد لحظة فاءت إلأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وادنوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابن هشام ٨١/٢).

وبعد سقوط بن السكن بقى الرسول في القريشين فقط، فى الصحيحين عن أبى عثمان قال: لم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص) [١]

وكانت احرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرصة ذهبية للمشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبى صلى الله عليه وسلم، وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة ابن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى فشجه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهراً إلا أنه لم يتمكن من هتك الدراعين، ثم ضرب على وجنته صلى الله عليه وسلم ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه: " أقمأك الله"[٢].

وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: " كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله " فأنزل الله عز وجل:(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)) (آل عمران) [٣]

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ:" اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله". ثم مكث ساعة ثم قال:" اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون"[٤] وفي صحيح مسلم أنه قال: " رب أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون"[٥] ، وفي الشقاء للقاضى عياض أنه قال:" اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون"[٦]

---

[١]- صحيح البخارى ٥٢٧/١ ، ٥٨١/٢.

[٢]- قد سمع الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عائذ أن قمئة " انصرف إلى أهلهفخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أداوه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى ٣٧٣/٧) وعند الطيرانى: فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البرى ٣٦٦/٧) و " قماك الله " : أذلك الله.

[٣]- صحيح البخارى ٥٨٢/٢ ، صحيح مسلم ١٠٨/٢.

[٤]- فتح البارى ٣٧٣/٧.

[٥]- صحيح مسلم : باب غزوة أحد ١٠٨/٢.

[٦]- كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨١/١.

بطوله نادرة .. وبسالة منقطعة النظير:

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن القريشين سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا – وهما اثنان فحسب – سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب فتناضلا حتى اجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أرم فداك أبى وأمى:

فأما سعد بن أبى وقاص، فقد نثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته وقال:" أرم فداك أبى وأمى"[١] . يدل ذلك على مدى كفاءته أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجمع أبويه لأحد غير سعد[٢].

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائى عن جابر تجمع المشركين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" من للقوم ؟ " فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحداً بعد واحد، بنحو ما ذكرناه من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة. قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حس، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: " لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون". قال: ثم رد الله المشركين[٣]. ووقع عند الحاكم في الاكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمس وثلاثين، وشلت أصبعه أي السبابة والتي تليها[٤].

١- صحيح البخارى ٤٠٧/١ /٢ ٥٨٠ ، ٥٨١.
٢- صحيح البخارى ٤٠٧/١ /٢ ٥٨٠ ، ٥٨١.
٣- فتح البارى ٣٦١/٧ ، وسنن النسائى ٥٢/٢ . " " حس " تقال عند التوجع " .
٤- المصدر الأول نفسه ٣٦١/٧.

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد[1].

وروى الترمذى وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه يومئذ: " من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله[2].

وروى أبا دواود الطيالسى عن عائشة قالت:" كان ابو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحه[3].

وقال فيه أبوبكر الصديق أيضاً:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت * * * لك الجنان وبوئت المها العينا [4]

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين عن سعد، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، وما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية: يعنى جبريل وميكائيل[5].

تجمع الصحابة حول الرسول صلى الله عليه وسلم:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته صلى الله عليه وسلم – الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال – لم يكادوا يرون تغير الموقف، أو يسمعو صوته صلى الله عليه وسلم حتى أسرعوا إليه؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقى من الجراحات – وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجروحات – وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح –

1- صحيح البخارى ١/٥٢٧ ، ٥٨١.
2- الترمذى : مناقب ح (٣٧٤٠) ، وابن ماجه : المقدمه ح (١٢٥)
3- فتح البارى ٧/ ٣٦١
4- مختصر تاريخ دمشق ٨٢/٧ . العين : بقر الوحش.
5- صحيح البخارى ٥٨٠/٢ ، ونحوه عند مسلم: الفاضل ١٠٢٨/٤ ح (٤٦ ، ٤٧).

فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، ورد هجماته، وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبوبكر رضى الله عنه.

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبوبكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى صلى الله عليه وسلم، فكنت أول من فاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فداك أبى وأمى، كن طلحة، فداك أبى وأمى، { حيث فاتنى ما فاتنى، فقلت: يكون رجل من قومى أحب إلي } [1] فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقنى، فدفعنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فإذا طلحة بين يديه صريعاً، فقال النبى صلى الله عليه وسلم:" دونكم أخاكم قد أوجب"، وقد رمى النبى صلى الله عليه وسلم في وجنته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، فذهبت لانزعهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذ بفيه فجعل ينضضه كراهية أن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استل السهم بفيه، فندرت ثنية أبى عبيدة، قال أبوبكر ثم ذهب لأخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذه فجعل ينضضه حتى استله، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" دونكم أخاكم فقد أوجب" ، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه، وقد أصابته بضعة عشرة ضربة[2].

وفي تهذيب تاريخ دمشق[3]: فأتيناه في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وستون أو أقل أو أكثر، بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه، فأصلحنا من شأنه.

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى صلى الله عليه وسلم عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبى طالب[4]، وسهل بن حنيف،

---

[1]- (١ ، ٢) صحيح البخارى ٤٠٧/١ ، ٥٨٠/٢ ، ٥٨١ . ١. من تهذيب تاريخ دمشق ٧٧/٧.

[2]- زاد المعاد ٩٥/٢.

[3]- ٨٧/٧.

[4]- قال علي بن أبى طالب: لما انجلى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نظرت القتلى فلم أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت:والله ما كان ليفر، وما أراه في القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيه صلى الله عليه وسلم ، فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل فكسرت جفن سيفى ، ثم حملت على القوم فأفرجوا لى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، مسند أبى يعلى ٤١٦/١ ح (٥٤٦.)

ومالك بن سنان أبى سعيد الخدرى، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبى بلتعة، وأبو طلحة.

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التى كان أبوعامر الفاسق يكيد بها، فجحشت ركبته، وأخذه علي بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة، فتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[١].

بسالة .. نادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيراً.

١- أبو طلحة:

كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له، وكان رجلاً رامياً شديد النزاع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول:" انثرها لأبى طلحة "، قال: ويشرف النبى صلى الله عليه وسلم ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك[٢].

١- زاد المعاد ٢/٩٧.
٢- صحيح البخارى ٢/٥٨١.

وعنه أيضاً قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبى صلى الله عليه وسلم بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمى، فكان إذا رمى تشرف النبى صلى الله عليه وسلم، فينظر إلى موقع نبله[١].

٢- أبو دجانة:

وقام أبو دجانة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترس عليه بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

٣- حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص:

الذي كسر الرباعية الشريفة – فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبى وقاص شديد الحرص على قتل أخيه – عتبة هذا – إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

٤- سهل بن حنيف:

أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله رمى عن قوسه حتى اندفعت سيتها[٢]، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

٥- عبد الرحمن بن عوف:

قاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعرج.

١- المصدر نفسه ١/٤٠٦.

٢- سيتها : ما عطف من طرفيها.

٦- مالك بن سنان:

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته صلى الله عليه وسلم حتى انقاه، فقال: " مجه "، فقال: والله لا أمجه، ثم أدبر يقاتل، فقال النبى صلى الله عليه وسلم:" من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلأى هذا " ، فقتل شهيداً.

٧- أم عمارة:

وقاتت أم عمارة فاعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين، فضربها بن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً.

٨- مصعب بن عمير:

وقاتل مصعب بن عميرة بضراوة بالغة، يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمداً قد قتل[١].

إشاعة مقتل النبى صلى الله عليه وسلم وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبى في المشركين والمسلمين وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

١- انظر : ابن هشام ٧٣/٢ ، ٨٠ – ٨٣ ، وزاد المعاد ٩٧/٢.

بسالة ليوث الإسلام:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله اللواء علي بن أبى طالب، فقاتل قتالاً شديداً وقامت بقية الصحابة الموجود هناك ببطولاتهم النادرة، يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليه أن أصمت – وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون – إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة – أحد فرسان المشركين – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لمواجهته، إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذفف عليه وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعطف عبد الله بن جابر – فارس آخر من فرسان مكة – على الحارث بن الصمة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ولكن انقض أبو دجانة – البطل المغامر ذو العصابة الحمراء – على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

ويغشيكم النعاس:

أثناء هذا القتال المرير كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه[١].

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة – في انسحاب منظم – إلى شعب الجبل، وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مقتل أُبى بن خلف (والله لو بصق على لقتلنى):

قال بن إسحاق: فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا. فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعوه " فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من حارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدأدأ – تدحرج – منها عن فرسه مراراً. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلنى والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤداك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان لى بمكة: " أنا أقتلك "[٢]، فوالله لو بصق على لقتلنى. فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة. وفي رواية أبى الاسود عن عروة، وكذا في رواية سعيد بن المسيب عن أبيه: أنه كان يخور خوار الثور، ويقول: والذي نفسي بيده، لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا جميعاً[٣].

أوجب طلحة .. الجنة:

١- صحيح البخارى٥٨٢/٢.

٢- وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا ، فيقول: يا محمد ، إن عندى العود فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بل أنا أقتلك إن شاءالله ".

٣- ابن هشام ٨٤/٢ ، والمستدرك للحاكم ٣٢٧/٢.

وفي أثناء انسحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع؛ لأنه كان قد بدن وظاهر بين الدراعين، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبد الله، فنهض به حتى استوى عليها، وقال: " أوجب طلحة "[١]، أي: الجنة.

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقر قيادته في الشعب قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النبل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب إذ علت عليه من قريش الجبل– يقودهم أبى سفيان وخالد بن الوليد – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلون "، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[٢].

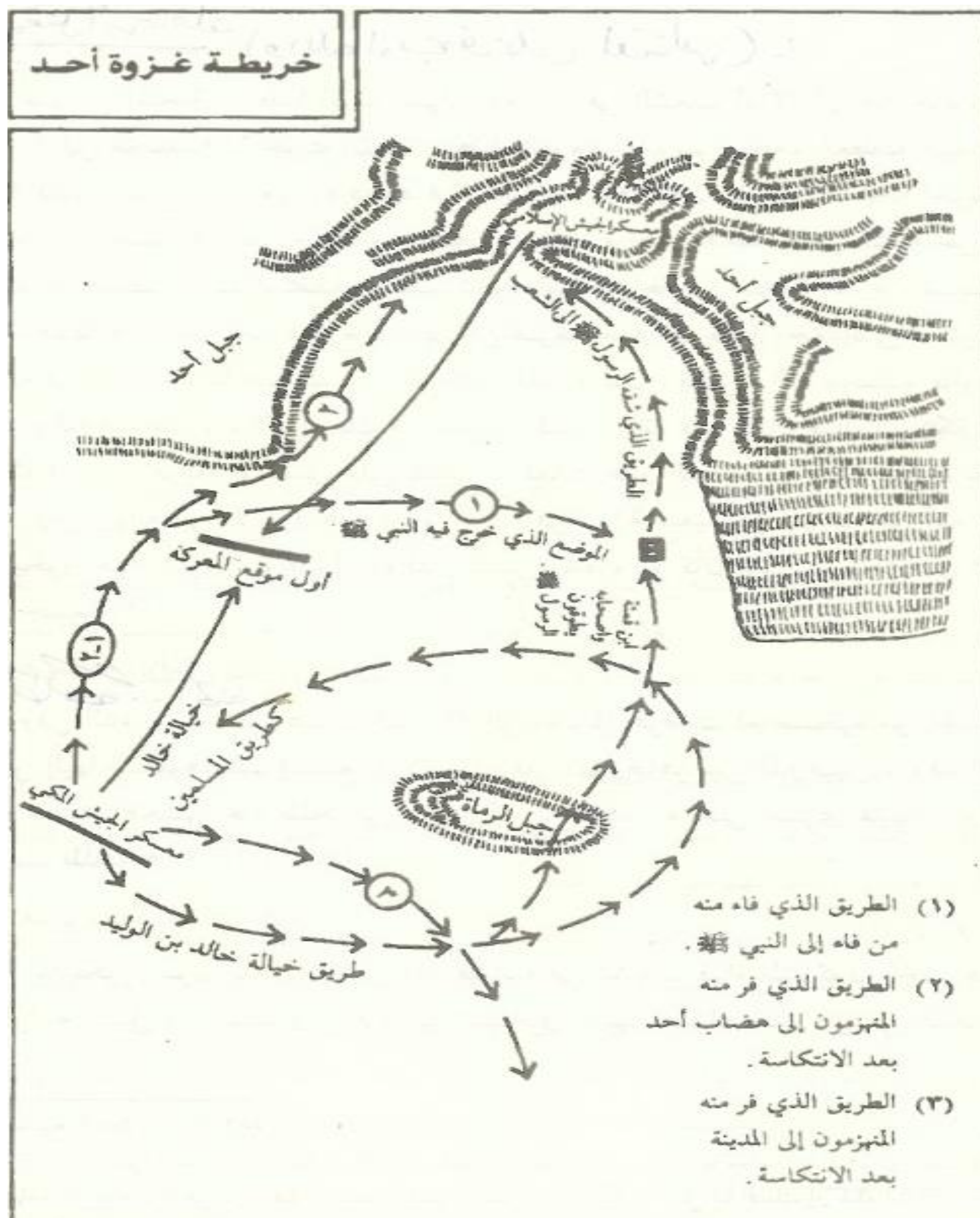
وفي مغازى الأموى: أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: " اجنبهم " – يقول: أرددهم – فقال: كيف أجنبهم وحدى؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهماً من كنانته، فرمى به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذت سهمى أعرفه، فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتى. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه[٣].

١- ابن هشام ٨٦/٢ ، ورواه الترمذى في الجهاد ح (١٦٩٢) ، والمناقب ح (٣٧٣٩) ، وأحمد ١٦٥/١ ، وصححه الحاكم ٣٧٤/٣ ووافقه الذهبى .
وظاهر بين الدرعين : لبس درعا فوق درع.

٢- ابن هشام ٨٦/٢.

٣- زاد المعاد ٩٥/٢.

خريطة غزوة أحد



تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبى صلى الله عليه وسلم، ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً – بل كانوا على شبه اليقين من قتله – رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم – وكذا اشتغلت نساؤهم – بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون.

وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خدماً – خلاخيل – وقلائد[١].

مدى استماتة أبطال المسلمين في سبيل الله:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم في سبيل الله.

١. قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[٢].

وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجه، وقال: كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة[٣].

٢. دور المرأة المسلمة:

١- ابن هشام ٢/٩٠.
٢- أى استجمعوا وانضموا.
٣- البداية والنهاية ٤/١٧.

جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليمة، وإنهما لمشمرتان – أرى خدم سوقهما – تنقزان [١] القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم[٢] ، وقال عمر: كانت (أم سليط من نساء الأنصار) تزفر لنا القرب يوم أحد[٣].

وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن، لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة، أخذت تحثو التراب في وجههم وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقى الجرحى، فرمها حبان (بالكسر) بن العرقة فوقعت وتكشفت، فأغرق عدو الله في الضحك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدفع إلى سعد بن وقاص سهماً لا نصل له، وقال:" أرم به "، فرمى به سعد، فوق السهم في نحر حبان، فوقع مستلقياً حتى تكشف، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى بدت نواجذه، ثم قال:" استقاد لها سعد، أجاب الله دعوته "[٤].

الرسول صلى الله عليه وسلم يغسل جرحه:

ولما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقره من الشعب خرج علي بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس – قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً. وقيل: اسم ماء بأحد – فجاء به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: " اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه"[٥].

وقال سهل: والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كان يسكب الماء، وبما دووى ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبى طالب يسكب الماء

١- تحملان.
٢- صحيح البخارى مع الفتح ٩١/٦ ح (٢٨٨ ، ٢٩٠٢ ، ٣٨١١ ، ٤٠٦٤) .
٣- المصدر نفسه مع الفتح ٩٣/٦ ح (٢٨٨١ ، ٤٠٧١).
٤- السيرة الحلبية ٢٢/٢.
٥-

بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، فألصقتها فاستمسك الدم[1].

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبى صلى الله عليه وسلم ودعا له بالخير[2]. وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعوداً[3].

الله مولانا .. ولا مولى لكم:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه – وكان النبى صلى الله عليه وسلم منعهم من الإجابة – ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه ولعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك. فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى.

ثم قال: أعل هبل.

فقال النبى صلى الله عليه وسلم:" ألا تجيبونه " فقالوا: فما نقول ؟ " قولوا: الله أعلى وأجل".

ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال النبى صلى الله عليه وسلم:" ألا تجيبونه " فقالوا: فما نقول ؟ " قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم".

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال[4]، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فأجابه عمر، وقال: لاسواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

---

[1]-

[2]- السيرة الحلبية ٢٢/٢.

[3]- ابن هشام ٨٧/٢.

[4]- أى ارتفع.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ائته فانظر ما شأنه؟ " فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: اللهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر [١].

مواعدة التلاقى في بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: " قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد"[٢]

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبى طالب، فقال:" أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قدر ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم". قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة [٣].

تفقد القتلى والجرحى:

١ . سعد بن الربيع:

وفرع الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لى:" إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تجدك؟ " قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرنى

---

[١]- ابن هشام ٩٣/٢ ، ٩٤ ، وزاد المعاد ٢/ ٩٤ ، وصحيح البخارى ٥٧٩/٢.
[٢]- ابن هشام ٩٤/٢.
[٣]- ابن هشام ٩٤/٢ ، وفي فتح البارى : أن الذى خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٣٤٧/٧).

كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام، قل له، يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[1].

٢. الأصيرم – عمرو بن ثابت

ووجدوا في الجرحى الأصيرم – عمرو بن ثابت وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذى جاء بك، أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصابنى ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:" هو من أهل الجنة" قال أبو هريرة: ولم يصل لله صلاة قط[2].

أ- قزمان (إنما الأعمال بالنيات):

ووجدوا في الجرحى قزمان – وكان قد قاتل قتال الأبطال؛ قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين – وووجدوه قد أثبتته الجراحة، فاحتملوهه إلى دار بنى ظفر، وبشره المسلمون فقال: والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول – إذا ذكر له:" إنه من أهل النار".

ب- مخيريق اليهودى:

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة ، قال لقومه: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت

[1]- زاد المعاد ٩٦/٢.
[2]- المصدر نفسه ٩٤/٢ ، وابن هشام ٩٠/٢.

لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالى لمحمد. يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مخيريق خير يهود "[١].

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء:" أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمى جرحه، اللون لون الدم والريح ريح المسك"[٢]

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردهم، فيدفنوهم في مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود.

وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع ما بين الرجلين في ثوب واحد، ويقول:" أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ " فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه في اللحد، وقال: " أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة"[٣]. ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة[٤].

نعش حنظلة:

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقدوه فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال:" سلوا أهله ما شأنه ؟ "

فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سمى حنظلة: غسيل الملائكة[٥].

حزن النبى صلى الله عليه وسلم على حمزة:

١- المصدر الأول نفسه ٩٧/٢ ، ٩٨ ، وابن هشام ٨٨/٢.
٢- ابن هشام ٨٨/٢ ، ٨٩
٣- المصدر نفسه ٩٨/٢
٤- صحيح البخارى مع الفتح ٢٤٨/٣ ح (١٣٤٣ ، ١٣٤٦ – ١٣٤٨ ، ١٣٥٣ ، ٤٠٧٩).
٥- صحيح البخارى ٥٨٤/٢ ، وزاد المعاد ٩٨/٢.

ولما رأى ما بحمزة – عمه وأخيه من الرضاعة – اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه – ودعت له – واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفنه مع عبد الله بن جحش – وكان ابن اخته، وأخاه من الرضاعة.

بكاء النبى صلى الله عليه وسلم على حمزة:

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب. وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشع من البكاء[١].

والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد. قال خباب: (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت قداميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر[٢].

وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير منى، كفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه[٣]، وروى مثل ذلك عن خباب، وفيه: فقال لنا النبى صلى الله عليه وسلم:" غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر"[٤].

الرسول صلى الله عليه وسلم يثنى على ربه عز وجل ويدعوه:

١- رواه ابن شاذان ، انظر : مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٥٥.
٢- رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١/١٤٠ . وملحاء: أى فيها خطوط سود وبيض.
٣- صحيح البخارى مع الفتح ٣/١٦٨ ، ١٦٩ ، ح(١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ٤٠٤٥).
٤- صحيح البخارى ٢/٥٧٩ ، ٥٨٤ ط: الهند، ومع فتح البارى ٣/١٧٠ ح (١٢٧٦ ، ٣٨٩٧ ، ٣٩١٣ ، ٣٩١٤ ، ٤٠٤٧ ، ٤٠٨٢ ، ٦٤٣٢ ، ٦٤٤٨).

روى الأمام أحمد: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" استووا حتى اثنى على ربى عز وجل "، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال:

" اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت. اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك".

" اللهم إنى أسلك النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول. اللهم أنى أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، وأجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق"[١].

نوادر الحب والتفانى:

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعاً إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة.

١. حمنة بنت جحش:

لقيته في الطريق "حمنة بنت جحش"، فنعى إليها أخوها عبدالله بن جحش فاسترجعت واستغفر له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها زوجها

[١]- رواه البخارى في الأدب المفرد ح ٦٩٩ ، والإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٤.

مصعب بن عمير، فصاحت وولوت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن زوج المرأة منها لبمكان" [١].

٢. امرأة من بنى دينار:

ومر بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى لله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى انظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل – تريد صغيرة [٢].

٣. أم سعد بن معاذ:

وجاء إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله أمى، فقال:" مرحباً بها " ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة (أي استقللتها) ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال:" يا أم سعد، أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً ". قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال:" اللهم أذهب حزن قلوبهم، وأجبرهم مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا "[٣].

الرسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله لقد صدقنى اليوم:

وانتهى رسول الله صلى مساء ذلك اليوم – يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال:" أغسلى عن هذا دمه يابنية، فوالله لقد صدقنى اليوم "، وناولها علي بن أبى طالب سيفه، فقال: وهذا أيضاً فاغسلى عنه

---

[١]- ابن هشام ٢/٩٨.
[٢]- المصدر نفسه ٢/٩٩.
[٣]- السيرة الحلبية ٢/٤٧.

دمه، فوالله لقد صدقنى اليوم، فقال رسول الله صلى لله عليه وسلم:" لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة "[١].

نتائج المعركة:

اتفقت جل الرويات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً، واحد واربعون من الخزرج، واربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً.

حالة الطوارئ في المدينة:

بات المسلمون في المدينة – ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ من معركة أحد وهم في حالة طوارئ، باتوا – وقد انهكهم التعب، ونال منهم أى منال – يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدها الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب.

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يفكر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التى كسبوها في ساحة القتال، فلا بد أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى.

قال أهل المغازى ما حاصلة: إن النبى صلى الله عليه وسلم نادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو – وذلك صباح الغد من معركة أحد، أى من يوم الأحد الثامن من شهر

[١]- ابن هشام ٢/١٠٠.

شوال سنة ٣هـ – قال: " لا يخرج معنا إلا من شهد القتال "، فقال له عبد الله بن أبى: أركب معك؟ قال: " لا " واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعاً وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إنى أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفنى أبى على بناته فائذن لى أسير معك، فأذن له.

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكروا هناك.

وهناك أقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم – ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف – فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك. فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق أبا سفيان فيخذله.

ولم يكن ما خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم، قال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبدوا أن هذا الرأى جاء سطحياً ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديراً صحيحاً؛ ولذلك خالفهم زعيم مسئول " صفوان بن أمية " قائلاً: يا قوم، لا تفعلوا فإن أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج – أى من المسلمين في غزوة أحد – فارجعوا والدولة لكم، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. إلا أن هذا الرأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة. ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد – وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة: محمد قد خرج في أصحابه، يطلبكم

في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول ؟

قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل – أو – حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال: فلا تفعل، فإنى ناصح.

حرب أعصاب دعائية:

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكى وأخذه الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا في مواصلة الأنسحاب والرجوع إلى مكة، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعاً فهو ينجح في تجنب لقائه. فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة، فقال: هل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم.

قال: فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم بحمرا الأسد، فأخبرهم بالذى قال له أبوسفيان، وقالوا:(إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ) – أى زاد المسلمين قولهم ذلك (إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)) (آل عمران).

مقتل أبا عزة الجمحى (الشاعر):

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بحمراء الأسد – بعد مقدمه يوم الأحد – الاثنين والثلاثاء والأربعاء–١١،١٠،٩ شوال سنة ٣هـ – ثم رجع إلى المدنية، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحى – وهو الذى كان قد من عليه من أسارى بدر، لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحداً، ولكنه نكث وغدر فحرض الناس بشعره على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين، كما أسلفنا، وخرج لمقاتلتهم في أحد، فلما أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، أقلنى، وامنن على، ودعنى لبناتى، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتول: خدعت محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

إعدام جاسوس من جواسيس مكة:

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن ابى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه؛ وذلك لأنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضى الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه[1].

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، وإنما هي جزء من غزوة أحد، وتتمة لها وصفحة من صفحاتها.

الوحى يتحدث حول موضوع المعركة:

[1]- أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٦٠/٢ ــ ١٢٩ ، وزاد المعاد ٩١/٢ ــ ١٠٨ ، وفتح البارى ٣٤٥/٧ ــ ٣٧٧ مع صحيح البخارى ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٤٢ ــ ٢٥٧ ، وقد أحلنا على المصادر الأخرى في مواضعها.

ونزل القرآن يلقى ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، وصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحى الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، والتى تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوسواس التي كانت تختلج في قلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود – أصحاب الدس والمؤامرة – وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة.

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدى بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة:(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) (آل عمران: ١٢١)

وتترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج هذه المعركة وحكمتها، قال تعالى:(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)) (آل عمران).

الفوائد والحكم الربانية من هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً[١]. وقال ابن حجر: قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهى؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا منه.

[١]- انظر: زاد المعاد ٢/٩٩ -١٠٨.

ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواًفي دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس، وكسراً لشماختها، فلما ابتلى المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الإبتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين[1].



[1]- فتح البارى ٣٤٧/٧.

أثر مأساة أحد على المؤمنين

كان لمأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضى عليهم وتستأصل شأفتهم.

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة. ثم قامت قبائل عضل وقارة في شهر صفر سنة ٤ هـ بمكيدة تسببت في قتل عشرة من الصحابة، وفي نفس الشهر نفسه قام عامر بن الطفيل بتحريض بعض القبائل حتى قتلوا سبعين من الصحابة، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة، ولم تزل بنو النضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤هـ بمكيدة تهدف إلى قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجرأت بنو غطفان حتى همت بالغزو على المدينة في جمادى الأولى سنة ٤هـ.

حكمة محمد صلى الله عليه وسلم:

فريح المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين – إلى حين – يهددون بالأخطار، ولكن تلك هي حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التي صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها قدراً من سمعة جيشه، واستعاد بها من مكانته شيئاً مذكوراً، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل زادت فيها، وفي الصفحات الآتية شيء مما جرى بين الطرفين:

سرية أبى سلمة:

أول من قام بنكسة المسلمين بعد أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة، وعقد له لواء. وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء لهم فاستاقوها، وعادو إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ. وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات[١].

بعث عبد الله بن أنيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر– المحرم سنة ٤هـ – نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس ليقضى عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائباً عن المدينة ثمانيى عشر ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالداً وجاء برأسه، فوضعه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فأعطاه عصا وقال:" هذه آية بينى وبينك يوم القيامة" فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه[٢].

بعث الرجيع (أول من سن ركعتين عند القتل):

وفي شهر صفر من نفس السنة – أى الرابعة من الهجرة – قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم قوم من عضل وقارة، وذكروا فيهم إسلاماً، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين،

١- زاد المعاد ١٠٨/٢.

٢- المصدر السابق ١٠٩/٢ ، وابن هشام ٦١٩/٢، ٦٢٠.

ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر، في قول بن إسحاق، وفي رواية البخارى أنهم كانوا عشرة وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى – في قول ابن إسحاق، وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب – فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع– وهو ماء بالهذيل ناحية الحجاز بين رابغ وجدة – استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم – وكانوا قد لجأوا إلى فدفد[1]

وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقى خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة آخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكان قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعونى حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بى جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً[2]، ولا تبق منهم أحداً، ثم قال:

لقد أجمع الأحـــــــــــزاب ولى وألبوا * * * قبائلهم واستجمعوا كـــــــل مجمع

وقـــــد قربوا أبناءهم ونســـــــــاءهم * * * وقربت مـــــن جـــذع طويل مُمنع

إلى الله أشـــــكو غـربتى بـعد كربتى * * * وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى

وقد خيرونى الكـفر والمـــــوت دونه * * * فقد ذرفت عيناى من غير مدمـــع

فذا العرش صبرنى على مــا يراد بى * * * فقد بضعوا لحمى وقد بؤس مطمعى

ولســت أُبالى حــــــين أقتل مُسلماً * * * على أى شق كــان في الله مضجعى

[1]- مكان مرتفع.
[2]- أى متفرقين.

وذلك في ذات الإلـــــــه وإن يشـــأ * * * يبارك على أوصال شلو[1] ممـــزع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله، ما يسرنى في أهلى وأن محمداً في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمرى، فأحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قد قتل أباه حارثاً يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئى وهو أسير يأكل قطفاً من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه – وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر – فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر – الزنابير – فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته[2].

مأساة بئر معونة (فزت .. ورب الكعبة):

وفي الشهر نفسه الذى وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهى التي تعرف بوقعة بئر معونة.

وملخصها:

أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بملاعب الأسنة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال:" إن أخاف عليهم أهل نجد "، فقال أبو

---

[1]- عضو.
[2]- ابن هشام ٢/١٦٩ – ١٧٩ ، وزاد المعاد ٢/١٠٩ ، وصحيح البخارى ٢/٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥.مأساة بئر معونة ()

براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلاً – في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذى في الصحيح هو الصحيح – ومر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمعنق ليموت[١]، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وسادتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة – وهى أرض بين عامر وحرة بنى سليم – فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استفز عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء، فاستفز بنى سليم، فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عيه وسلم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه أرتث[٢] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمرى، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى صلى الله عليه وسلم حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا

١- لقب بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة.
٢- رفع وبه جرح.

معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل، فقال:" لقد قتلت قتيلين لأدينهما"، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[١]، وهذا الذى صار سبب لغزوة بنى النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبى صلى الله عليه وسلم لهذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[٢]، تألماً شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق[٣]، حتى دعا هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه. ففى الصحيح عن أنس قال: دعا النبى صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول:" عُصية عصت الله ورسوله "، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد:" بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه " فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قنوته[٤].



[١]- انظر: ابن هشام ١٨٣/٢ – ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، وصحيح البخارى ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦.
[٢]- ذكر ابن سعد أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى صلى الله عليه وسلم في ليلة واحدة (٥٣/٢).
[٣]- روى ابن سعد عن انس: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٥٤/٢).
[٤]- البخارى ٥٨٦/٢ – ٥٨٨.

الفصل الخامس

غزوة بنى النضير ونزول سورة الحشر

قد أسلفنا أن اليهود كان يتحرقون على الإسلام والمسلمين إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعاً م الحيل؛ لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشراف خافوا على أنفسهم فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سراً، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[١].

وصبر النبى صلى الله عليه وسلم حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبى صلى الله عليه وسلم.

وبيان ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في ديه الكلابين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى – وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، أجلس ها هنا حتى نقضى حاجتك. فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبوبكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذى كتبه عليهم، فتآمروا بقتله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟

فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه. ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

---

[١]- يؤخذ ذلك مما رواه داود في باب خبر النضير ١١٦/٣ ، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبى داود).

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود.

وما لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بعث محمد بن مسلمة إلى بنى النضير يقول لهم: " أخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه". ولم يجد يهود مناصاً من الخروج، فأقاموا اياماً يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن ابى – أن أثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ (الحشر: ١١) وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناورة، وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة للمسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كلب العرب عليهم وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم أن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرص القتال معهم محفوفاً بالمكاره، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر المعونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير – بعد همهم باغتيال الرسول الله صلى الله عليه وسلم مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة أبن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلي بن أبى طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك أنزل الله تعالى:(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) (الحشر:٥).

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً، أو يدفع عنهم شراً، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم:(**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ**) (الحشر:١٦).

ولم يطل الحصار– فقد دام ست ليال فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة – حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حملوا بعض الاوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاح بنى النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

وكانت اموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يضعها

حيث يشاء، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين

لفقرهما. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

كانت غزوة بنى النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م، وأنزل الله تعالى في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفئ، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن صورة الحشر: قل: سورة النضير[١].

هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة. وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سبباً آخر حول هذه الغزوة، وهو أنه لما كانت وقعت بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء – وهو الخلاخيل – فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقى في مكان كذا، نصف بيننا وبينككم، فيسمعوا منك فإن صدقوك وأمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه:

كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً ؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم في ثلاثة نفر من أصحابه واشتملوا (أى اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه

١- ابن هشام ١٩٠/٢ – ١٩٢ ، وزاد المعاد ٢/المعاد ٧١/٢ ، ١١٠ ، وصحيح البخارى ٥٧٤/٢ ، ٥٧٥.

وسلم، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى بنى أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبى صلى الله عليه وسلم إليهم، فرجع النبى صلى الله عليه وسلم، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم:" إنكم لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه "، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب، وترك بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فأنصرف عنهم، وغداً إلى بنى النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا إلى الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة – والحلقة: السلاح – فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيتوهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشرالناس إلى الشام [١].

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون – في غزوة بنى النضير – دون قتال وتضحية توطد سلطانهم في المدينة وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، وأمكن للرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة.

فقبل أن يقوم النبى صلى الله عليه وسلم بتأديب أولئك الغادرين، نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان، فسارع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الخروج، يجوس فيافى نجد، ويلقى بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التي ارتكبها أخونهم مع المسلمين.

[١]- مصنف عبد الرزاق ٣٥٨/٥ – ٣٦٠ ح (٩٧٣٣) ، وسنن أبى داود: كتاب الخراج والفئ والإمارة ، باب في خبر النضير ١٥٤/٢.

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رءوس الجبال، وهكذا أرعب المسلمون هذه القبائل المغيرة، وخلطوا بمشاعرهم الرعب، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين.

غزوة بدر الثانية أو غزوة بدر الموعد:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب، وكفكفوا شرهم، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر، فقد استدار العام وحضر الموعد المضروب مع قريش – في غزوة أحد – وحق لمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يخرجوا؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء.

ففي شعبان سنة ٤هـ سنة ٦٢٦ م خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل اللواء علي بن ابى طاالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما ابو سفيان فخرج في ألفين من مشركى مكة، ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة – ماء في تلك الناحية.

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فأرجعوا.

ويبدوا أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى معارضة لهذا الرأى، ولا أى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم وتوطدت هيبتهم في النفوس، وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى[1].

غزوة دُومة الجندل:

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل – قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة سباع بن عُرفطة الغفارى، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ هـ ، وأخذ رجلاً من بنى عذرة دليلاً للطريق يقال له: مذكور.

خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ما شيتهم ورعائهم، فأصاب من اصاب، وهرب من هرب.

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً، وأقام الرسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، ثم رجع إلى المدينة، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصنة. ودومة بالضم: موضع معروف بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة.

تحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين:

[1]- أنظر التفصيل هذه العزوة: ابن هشام ٢/٢٠٩، ٢١٠ ، وزاد المعاد ٢،١١٢.

بهذه الإجراءات السريعة الحاسمة، وبهذه الخطوط الحكيمة الحازمة نجح النبى صلى الله عليه وسلم في بسط الأمن، وتنفيذ السلام في المنطقة، والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالت عليهم وأحاطت بهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتم إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار، وبإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين.

الفصل السادس

غزوة الأحزاب

تحريض اليهود لقريش على غزو الرسول صلى الله عليه وسلم:

عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود- الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم – لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا ، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر. فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنين، ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم – تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق.

وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتصويت ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم

قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذاً لسمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة – وقائدهم أبو سفيان في اربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع، ويقودهم مسعر بن رحيلة، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

تجمع الأحزاب حول المدينة:

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه. وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

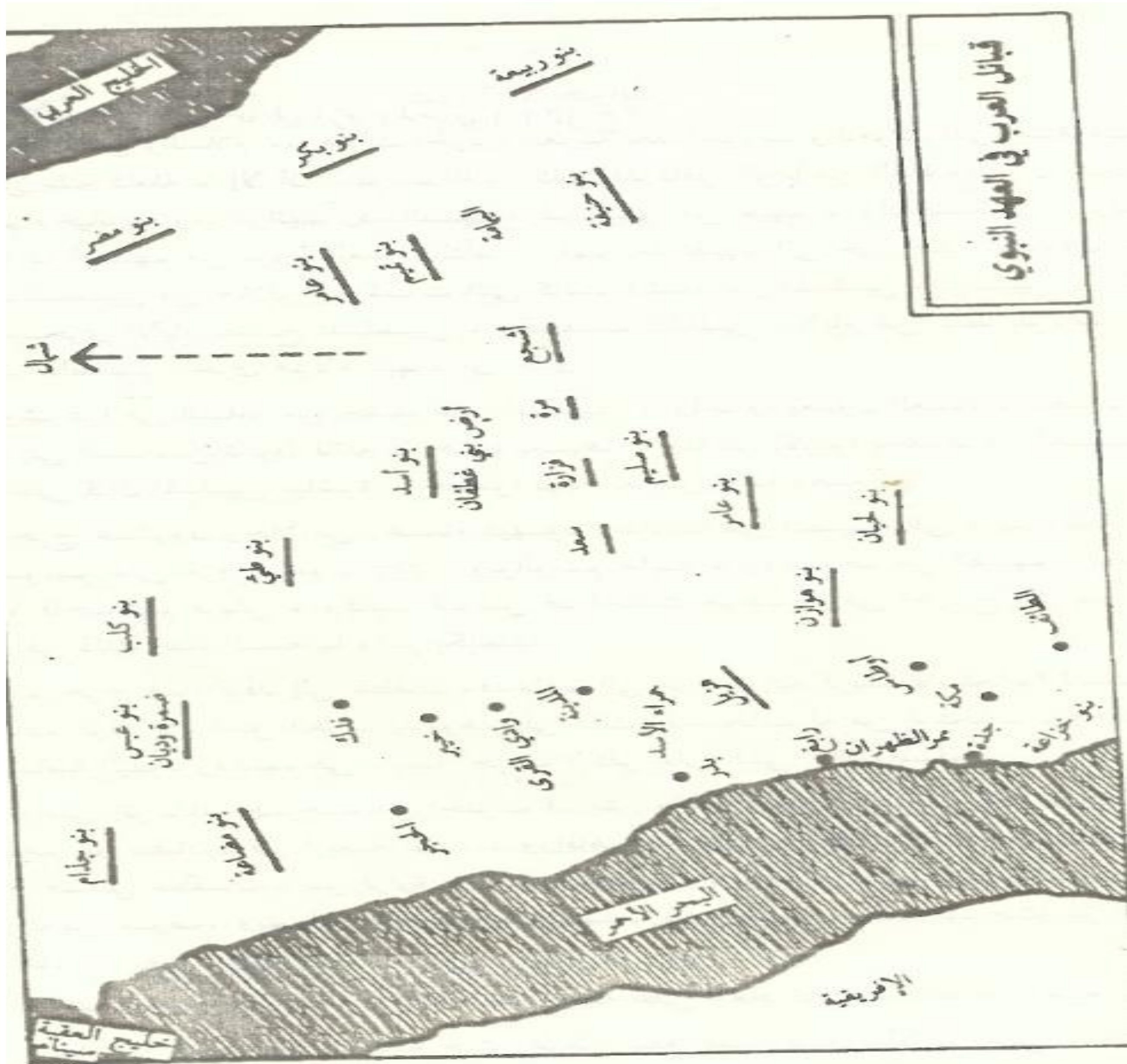
تيقظ قيادة المدينة:

وربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء تتيقظ قيادة المدينة، ولكن قيادة متيقظة، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، تتجسس الظروف، وتقدر ما يتخمض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبرات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

خطة حكيمة لم تعرفها العرب من قبل:

وسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عقد مجلس استشارى أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضى الله عنه.

قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا. وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب من قبل ذلك.



النبى صلى الله عليه وسلم ينقل تراب حفر الخندق بنفسه:

وأسرع النبى صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا. ففى البخارى عن سهيل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا[١]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار"[٢].

وعن أنس: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

" اللهم إن العيش عيش الآخــرة * * * فاغفر للأنصار والمهاجرة "

فقالوا مجيبين له:

نحـــــن الذين بايعـــــوا محمداً* * * على الجهـــاد ما بقينا أبداً [٣]

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما أهـــــــتدينا* * * ولا تصـــــــــدقنا ولا صـــــــلينا
فأنزلن ســــكينة علـــــــــينا* * * وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى رغـــبوا علـــــــينا* * * وإن أرادوا فـــــــــــــتنة أبينا[٤] "

مقاساة المسلمين من شدة الجوع:

كان المسلمون يعملون بهذا النشط وهم يقاسون شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أنس:

١- جمع كتد ، وهو مجتمع الكتفين.
٢- صحيح البخارى : باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢.
٣- صحيح البخارى ٣٩٧/١ ، ٥٨٨/٢.
٤- المصدر نفسه ٥٨٩/٢.

(كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفى من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة [١] توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح[٢].

وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين[٣].

١. موقف جابر بن عبدالله آيات من النبوة:

وبهذه المناسبة وقعت أثناء حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله في النبى صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً فذبح بهيمة، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثم التمس من رسول الله صلى الله عليه وسلم سراً أن يأتى في نفر من أصحابه، فقام النبى صلى الله عليه وسلم بجمع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هى، وبقى العجين يخبز كما هو[٤].

٢. موقف زيادة التمر:

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغذى به أبوها وخالها، فمرت برسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منها التمر، وبدده فوق ثوبه، ثم دعا أهل الخندق، فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب[٥].

٣. موقف ضرب الكدية الشديدة:

وأعظم من هذين ما رواه البخارى عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال:" أنا

١- الإهالة : الدهن ، وسنخة : أى تغيرت من طول بقائها .
٢- صحيح البخارى ٥٨٨/٢.
٣- رواه الترمذى ، مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢ .
٤- روى ذلك البخارى ٥٨٨/٢ ، ٥٨٩.
٥- ابن هشام ٢١٨/٢.

نازل"، ثم قام وبطنه معصوب بحجر– ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذوقاً – فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول، فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[1]، أى صار رملاً لا يتماسك.

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فشكينا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه وأخذ المعول فقال:" بسم الله " ثم ضربة ضربة، وقال:" الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة ". ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال" الله أكبر، أعطيت فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن" ، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله "، فقطع بقية الحجر، فقال: " الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر ابواب صنعاء من مكانى "[2].

مكان الخندق:

ولما كانت تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم في حفره،، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة[3].

إقبال قريش وخلفائها:

وأقلبت قريش في أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف ورغابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد.

---

[1]- صحيح البخارى ٥٨٨/٢.
[2]- سنن النسائى ٥٦/٢ ، وأحمد في مسنده ٣٠٣/٤ واللفظ للنسائى ، وفيه عن رجل من الصحابة.
[3]- المصدر نفسه ٣٣٠/٣ ، ٣٣١.

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)) (الأحزاب)

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)) (الأحزاب).

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى الجبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار وكان شعارهم: " حم لا ينصرون " واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا في آطام[١] المدينة.

تفاجأ المشركين بالخندق:

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينها وبينهم، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة – كما قالوا – مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً.

المسلمين والمشركين حول الخندق:

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعون أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقاً يمكنهم العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبى طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة

---

[١]- حصون.

التي اقتحموا منها خيلهم، ودعا عمر إلى المبارزة، فانتدب له علي بن أبى طالب، وقال كلمة حمى لأجلها – وكان من شجعان المشركين وأبطالهم – فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتجاولا وتصاولا حتى قتله علي رضى الله عنه، وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل ، وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم.

صلاة النبى صلى الله عليه وسلم العصر بعد غروب الشمس وفوات وقتها:

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ففى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش. فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبى صلى الله عليه وسلم:" وأنا والله ما صليتها"

فنزلنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بطحان، فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[١].

وقد استاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففى البخارى عن علي عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الخندق: " ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس"[٢].

وفي مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعاً. قال النووى: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام وهذا في بعضها. انتهى[٣].

١- صحيح البخارى ٢/٥٩٠.
٢- صحيح البخارى ٢/٥٩٠.

مراماة .. ومناضلة:

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركن، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشيين لم يجر بينهما قتال مباشر أو حرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وفي هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع: ستة من المسلمين، وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد منهم أو اثنين بالسيف.

رمى سعد بن معاذ بسهم:

وفي هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل[١]، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، فدعا سعد: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها وأجعل موتتى فيها[٢]. وقال في آخر دعائه: ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة[٣].

نقضى بنى قريظة العهد مع المسلمين:

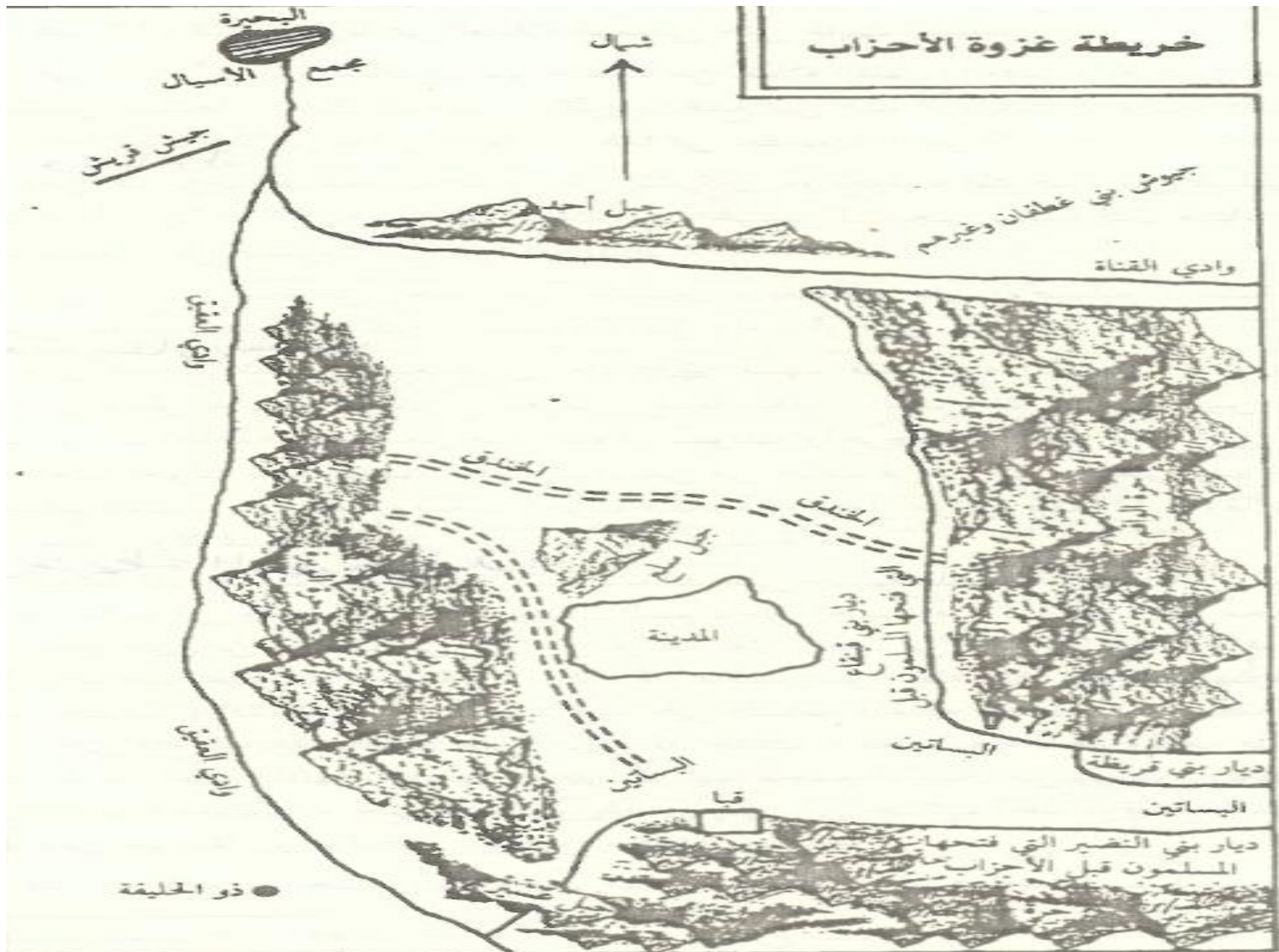
وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتأمر تتقلب في جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادها: انطلق كبير مجرمى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصره إذا أصابته حرب، كما تقدم – فضرب عليه حيى الباب فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيى: إنى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها

٣- شرح مسلم للنوى ٢٢٧/١.
١- عرق في الذراع يفصد.
٢- صحيح البخارى ٥٩١/٣.
٣- ابن هشام ٣٣٧/٣.

وسادتها، حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام [1] قد هراق ماؤه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء.

فلم يزل حيى بكعب يخادعه، حتى سمح له أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ بين ما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين[2].



[1]- السحاب الذى لا ماء فيه.
[2]- ابن هشام ٢/٢٢٠ ، ٢٢١.

فعل مجيد من عمة الرسول صلى الله عليه وسلم صفية بنت عبد المطلب:

وفعلاً قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب، قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من اليهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في غور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأنزل إليه فأقتله.

قال: والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فاحتجزت [١] ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن وقلت: يا حسان، أنزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لى بسلبه من حاجة [٢].

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر عميق في حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون في منعة من الجيش الإسلامى – مع أنها كانت خالية عنهم تماماً – فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالؤن، كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمين من مؤنهم عشرين جملاً.

الرسول صلى الله عليه وسلم يتأكد من خيانة بنى قريظة:

وانتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلى موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر

١- أى شددت وسطى.
٢- ابن هشام ٢/٢٢٨ ، وذكر الحافظ بن حجر : أن أحمد رواه بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير . فتح البارى ٦/٢٨٥ شرح كتاب فرض الخمس ، باب ١٨ من صحيح البخارى.

السعدين، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال:" انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس".

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقالوا: من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد، فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لحنوا له، وقالوا: عضل وقارة ؛ أى أنهم على غدر كغدر عضل وقارة باصحاب الرجيع.

وعلى رغم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب.

أحرج موقف يقفه المسلمون:

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما قال الله تعالى:

(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)) (الأحزاب).

إن يريدون إلا فراراً (ظهور النفاق والمنافقين):

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وحتى قال آخر في ملأ رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة. وحتى همت بنو سلمة بالفشل، وفي هؤلاء أنزل الله تعالى:(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)) (الاحزاب)

أبشروا بفتح الله ونصره:

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشراً يقول:" الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره "، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدين؛ لئلا يؤتى الذرارى والنساء على غرة، وشاورة النبى صلى الله عليه وسلم على مصلحة غطفان ولكن كان من إقدام حاسم، يفضى إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً، وجرت المراودة على ذلك، فستشار السعدين في ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟

والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما وقال: " إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ".

فخذ عنا ما استطعت:

بما أن الله عز وجل – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم، وفل حدهم، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى رضى الله عنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى ما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة ".

نعيم يدب الفرقة بين صفوف الأحزاب:

فذهب من فوره إلى بنى قريظة – وكان عشيراً لهم في الجاهلية – فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريش ليس مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وابناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريش وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساءهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم ؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودى لكم ونصحى لكم ؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالون عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال – سنة ٥ هـ – بعثوا إلى يهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف[١]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإن لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فأخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

اللهم أهزمهم وزلزلهم:

[١]- يعنى بالكراع : الخيل ، وبالخف : الإبل.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا "، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، فقال: " اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم "[١].

استجابة الله لدعاء رسوله والمسلمين:

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا طنباً[٢] إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جنداً من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وهزم الأحزاب .. وحده:

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمسة من الهجرة في شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً أو نحو شهر. ويبدوا بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ونهايته في ذى القعدة، وعند ابن سعد أن أنصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

الآن .. نغزوهم ولا يغزونا:

١- صحيح البخارى : كتاب الجهاد ٤١١/١ ، وكتاب المغازى ٥٩٠/٢ .
٢- هى الحبال تشد بها الخيمة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب :" الآن نغزوهم ، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم"[1].

الفصل السابع

غزوة بنى قريظة

موكب جبريل بالملائكة:

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاء جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة، فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة:

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبى طالب، وقدمه إلى بنى قريظة، فسار علي حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

إمتثال المسلمين لأمر النبى صلى الله عليه وسلم:

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنا. وبادر المسلمون على إمتثال أمره، ونهضوا من

---

[1]- صحيح البخارى ٢/٥٩٠.

فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بنى قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بنى قريظة أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرساً، فنازلوا حصون بنى قريظة، وفرضو عليهم الحصار.

موقف كعب بن أسد زعيم بن قريظة من حصار المسلمين:

ولما أشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال:

١. إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم – وقد قال لهم: والله، لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه الذى تجدونه في كتابكم.

٢. وإما أن يقتلوا ذراريهم ونسائهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالسيوف مصلتين [١]، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم.

٣. وإما أن يهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد – في إنزعاج وغضب: ما بات رجل منكم منذ أن ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

ترقب اليهود لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم:

ولم يبقى لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرسل إلينا أبا

---

[١]- مجردة من أغمادها.

لبابة نستشيره، وكان حليفاً لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش[١]

النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال: نعم؛ وأشار بيده إلى حلقه، يقول: إنه الذبح.

أبو لبابة يخون الله ورسوله:

ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبداً. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره – وكان قد استبطأه – قال:" أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ".

كتيبة الإيمان:

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة على النزول لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون؛ ولأن المسلمون كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذى اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الإنهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبى طالب والزبير بن العوام، وصاح علي: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات (حكم سعد بن معاذ في بنى قريظة):

١- تهيأ.

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتقال الرجال، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصارى، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال في ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بنى قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: " ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ " قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصاب أكحله في معركة الأحزاب. فركب حماراً وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فجعلوا يقولون، وهم كنفيه: يا سعد، أجمل في مواليك، فأحسن فيهم، فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال للصحابة: " قوموا إلى سيدكم "، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمى نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له وتعظيماً. قال: " نعم، وعلى".

قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات ".

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بنى قريظة، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس، وحجفة[1]، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

---

[1]- ترس من جلد.

إستئصال أفاعى الغدر والخيانة:

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا ؟ فقال: أفى كل موطن لا تعقلون ؟ أما ترون الداعى لا ينزع ؟ والذاهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل – وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.

وهكذا تم إستئصال أفاعى الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

قتل شيطان بنى النضير:

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد مجرمى معركة الأحزاب حيى بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضى الله عنها، كان قد دخل مع بنى قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به – وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملةلئلا يسلبها – مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أما والله ما لمت نفسى في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب، ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

قتل امرأة واحدة:

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

قتل من أنبت:

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القرظى، فترك حياً فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس، الزبير بن باطا وأهله وماله – وكانت للزبير يد عند ثابت – فوهبهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي، ووهب لى مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم وله صحبة.

واسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم. وخرج تلك الليلة عمرو ابن سعدى – وكان رجلاً لم يدخل من بنى قريظة في غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوى، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهماً واحداً، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى فابتاع بها خيلاً وسلاحاً.

واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى ملكه، هذا ما قاله ابن إسحاق[١].

وقال الكلبى: إنه صلى الله عليه وسلم أعتقها، وتزوجها سنة ٦ هـ، وماتت مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع[٢].

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضى الله عنه – التى قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب – وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته. قالت عائشة:فانفجرت من لبته فلم يرعهم –

١-
٢-

وفي المسجد خيمة من بنى غفار– إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغذو جرحه دماً، فمات منها[١].

اهتز لموته عرش الرحمن:

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ "[٢] وصحيح الترمذى من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الملائكة كانت تحمله "[٣].

شهداء المسلمين:

قتل في حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سويد الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة. ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة.

توبة الله على أبى لبابة:

وأما أبو لبابة، فأقام مرتبطاً بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع، ثم نزلت توبته على رسول الله صلى الله عليه وسلم سحراً وهو في بيت أم سلمة، فقامت على باب حجرتها، وقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مر النبى صلى الله عليه وسلم خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

وقعت هذه الغزوة في ذى القعدة سنة ٥ هـ، ودام الحصار خمساً وعشرين ليلة[٤].

وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب.

١-
٢-
٣-
٤-

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبى الحقيق:

كان سلام بن أبى الحقيق – كنيته أبو رافع – من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة [1]، وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله.

وكان قتل كعب بن الأشراف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم، فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله في قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من الخزرج، قائدهم عبد الله بن عتيك.

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خيبر؛ إذ كان هناك حصن أبى رافع، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: أجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب، لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فأدخل، فإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله بن عتيك: فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود[2]. قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من

---

[1]- انظر: ابن هشام ٢/٢٤٥.
[2]- تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٢.

دخل. قلت: إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال: لأمك الويل، إن رجل في البيت ضربنى قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله. ثمم وضعت ضبيب السيف[1] في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب. فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فحدثته فقال:" ابسط رجلك ". فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم أشتكها[2]

سرية محمد بن مسلمة:

وكانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً.

والله لا ياتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تحركت هذه السرية إلى القرطاء بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب. فلما أغارت عليهم هربوا، فاستاق المسلمون نعما وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من محرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة، كان قد خرج متنكراً لإغتيال النبى صلى

[1]- صحيح البخارى ٥٩١/٢. واللبة : موضع القلادة من الصدر . ويرعهم : يفزعهم.
[2]- صحيح البخارى ٥٣٦/٢. وصحيح المسلم ٢٩٤/٢ ، وجامع الترمذى ٢٢٥/٢.

الله عليه وسلم بأمر مسيلمة الكذاب[١]، فأخذه المسلمون، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال:" ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مر به مرة أخرى؛ فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد أولاً، ثم مر ثالثة فقال – بعدما دار بينهما الكلام السابق: " أطلقوا ثمامة "، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم إلى قريش قالوا: صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكنى أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم. ولا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليه حمل الطعام، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

غزوة بنى لحيان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستهونت عزائمهم واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه

١- جامع الترمزى ٢/٢٢٥.
٢- زاد المعاد ٢/١١٩ ، وصحيح البخارى ح (٤٣٧٢) وغيره ، وفتح البارى ٧/٦٨٨.

المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦هـ في مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم اسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران – واد بين أمج وعسفان – حيث كان مصاب اصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم، وسمعت به بنو لحيان فهربوا في روءس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عسفان،، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرسال البعوث والسرايا، وهاك صور مصغرة منها:

١. سرية عكاشة بن محصن إلى غمر في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ.

خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى غمر، ماء لبنى أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتى بعير ساقوها إلى المدينة.

٢. سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ.

خرج بن مسلمة في عشرة رجال إلأى ذى القصة في ديار بن ثعلبة، فكمن القوم لهم – وهم مائة – فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً.

٣. سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ.

وقد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم على إثر أصحاب محمد بن مسلمة فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، وافوا بنى ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحد فأسلم، وغنموا نعماً وشاء.

٤. سرية زيد بن حارثة إلى الجموع في ربيع الآخرسنة ٦هـ :

والجموع ماء لبنى سليم في مر الظهران – خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعماً وشاء وأسرى، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمزينية نفسها وزوجها.

٥. سرية زيد بن العيص فيجمادى الأولى سنة ٦ هـ في سبعين ومائة راكب:

وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها ابو العاص ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأفلت أبو العاص، فأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت في الحديث الصحيح[١].

٦. سرية زيد أيضاً إلى الطرف أو الطرق في جمادى الآخر سنة ٦هـ:

خرج زيد في خمسة عشر رجلاً إلى بنى ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إليهم، فاصاب من نعمهم عشرين بعيراً، وغاب أربع ليال.

٧. سرية زيد أيضاً إلى وادى القرى في رجب سنة ٦هـ:

خرج زيد في اثنى عشر رجلاً إلى وادى القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادى القرى؛ فقتلوا تسعة، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة [٢].

٨. سرية الخبط – تذكر هذه السرية في رجب ٨هـ:

ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية – قال جابر: بعثنا النبى صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى

١- انظر : سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود : باب متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

٢- رحمة للعالمين ٢/٢٢٦ ، وانظر إلى هذه السريا المصدر المذكور ، وزاد المعاد ٢/١٢٠ – ١٢٢، وحواشى تلقيح فهم أهل الأثر ص ٢٨ ، ٢٩.

أكلنا الخبط، فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم أن أبو عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وأدهنا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمة وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ذلك، فقال:" هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا ؟ " فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه [1].

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلحة الحديبية.



إلى اللقاء في الجزء الثاني من

خيول العز

محمود الأكوح

مع تحيات/ موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية

والنشر الإلكتروني

[1]- صحيح البخارى ٦٢٥/٢ ، ٦٢٦ ، صحيح مسلم ١٤٥/٢ ، ١٤٦.